في مدرسة الحج

دكتور / بدر عبد الحميد هميسه

١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

في مدرسة الحج

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت إله السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ حق، اللهم لك أسلمنا، وبك آمنا، وعليك توكلنا، فاغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا، اللهم بك خاصمنا، وإليك حاكمنا، وبدينك رضينا،وإلى رحمتك رغبنا، فاغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله بعثه الله على حين ظلمة وغفلة من الناس، فبصر به من العمى، وهدى به من الضلالة، وأنار به من الظلمة، وأنقذ به من الهلكة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد . . ؛

فإن الحج مدرسة تربوية من مدارس الإسلام يتعلم فيها المسلم أوفى الدروس وأنبلها ، ففي هذه الرحلة التربوية الروحية والإيمانية ؛ رحلة التشويق إلى البيت العتيق ، يتعلم المسلم منها: التقوى التي هي جماع الخير كله ، قال تعالى : " الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) **سورة البقرة** ، كما يتعلم الذكر والدعاء ، قال سبحانه : " فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) **سورة البقرة** ، كما يتعلم اكتساب الأخلاق الحميدة ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) **سورة الحج** .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ حَتَّى يَرْجِعَ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. **أخرجه "أحمد" ٢/٢٢٩(٧١٣٦ و"الدارمي" ١٧٩٦ و"البخاري" ١٥٢١ .**

وعَنْ جَابِرٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةَ ، قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللهِ ، مَا الْحَجُّ الْمَبْرُورُ ؟ قَالَ : إِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَإِفْشَاءُ السَّلاَمِ.**أخرجه أحمد ٣/٣٢٥(١٤٥٣٦).**

ويتعلم معاني الأخوة الإسلامية " أيها النّاسُ إن ربَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ ، كُلُّكُمْ لآدمَ ، وآدمُ من تُراب، أكرمُكُمْ عندَ اللهِ أتْقَاكُمْ وليس لعربيّ فَضْلٌ على عجميّ إلاّ بالتّقْوىَ" **رواه البخاري** .

كما يتعلم النظام ، والحرص على الوقت ، إلى غير ذلك من المنافع ، قال تعالى : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ

مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) **سورة الحج**.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛(أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : حَجٌّ مَبْرُورٌ.)". **أخرجه ((أحمد)) ٣٦٤/٢(٧٥٨٠) و((البُخاري)) ١٣/١(٢٦) ، و((مسلم)) ٦٢/١(١٦١)**.

فكل هذه النصوص وغيرها تبين قيمة الحج وفضله وثمرته ، فالغنيمة الغنيمة بانتهاز الفرصة في هذه الأيام العظيمة فما منها عوض و لا لها قيمة المبادرة المبادرة بالعمل و العجل العجل قبل هجوم الأجل قبل أن يندم المفرط على ما فعل قبل أن يسأل الرجعة فيعمل صالحا فلا يجاب إلى ما سأل قبل أن يحول الموت بين المؤمل و بلوغ الأمل قبل أن يصير المرء مرتهنا في حفرته بما قدم من عمل .

فعلى المسلم أن يدرك أن الحج سبب لدخول الجنة، كما قال الرسول –صلى الله عليه وسلم–:" الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة".**أخرجه مالك "الموطأ" ٣٢٨ و"أحمد" ٣٤٦/٢ (٧٣٤٨) و"البُخاري" ١٧٧٣ و"مسلم" ٣٢٦٨**.

فالحج رحلة قلوب وأفئدة قبل أن يكون رحلة أجساد وجسوم ، استجابة لدعاء الخليل إبراهيم عليه السلام : " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) **سورة إبراهيم**.

قال الشاعر :

وما زال وفد الله يقصد مكة * * * إلى أن يرى البيت العتيق وركناه
يطوف به الجاني فيغفر ذنبه * * * ويسقط عنه جرمه وخطاياه
فمولى الموالي للزيارة قد دعا * * * أنقعد عنها والمزور هو الله
نحج لبيت حجه الرسل قبلنا * * * لنشهد نفعا في الكتاب وعدناه
فيامن أساءيا من عصى لورأيتنا * * * وأوزارنا ترمى ويرحمنا الله
وودعت الحجاج بيت إلهها * * * وكلهم تجري من الحزن عيناه
ووالله لولا أن نؤمل عودة * * * إليه لذقنا الموت حين فجعناه

اللهم ارزقنا علماً نافعاً وعملاً متقبلاً ورزقاً واسعاً وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً وإيماناً خالصاً وهب لنا إنابة المخلصين وخشوع المخبتين ، وأعمال الصالحين وأصلح ذات بيننا واجمع قلوبنا على الخير يا أفضل من رجي وقصد وأكرم من سئل، اللهم اجعل حجنا مبرورا ، وذنبنا مغفورا ، اللهم اغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

راجي عفو ربه
دكتور / بدر عبد الحميد هميسم
hamesabadr@yahoo.com

إهداء

إلى الحجاج والعمار.

إلى المشتاقين والزوار.

إلى كل من وفد إلى بيته يطلبون مغفرته ورضاه

إلى من بث إلى الله تعالى وحده حزنه وشكواه .

إلى من باهى بهم ربهم ملائكته فقال : انظروا إلى عبادي جاءوني شعثا غبرا ضاحين من كل فج ، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم .

الدرس الأول

الحج فضائل وثمار

الحج عبادة من أشرف وأجل العبادات التي افترضها الله تعالى ، وجعلها إحدى الدعامات الخمس التي يرتكز عليها الدِّين الإسلامي والتي بينها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت».متفق عليه.

قال تعالى : " وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ" ١٦٩ سورة البقرة . وقال : " وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) سورة آل عمران .

والحج فيه فضل عظيم وثواب جزيل، ومذ حج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس في السنة العاشرة من الهجرة حجته التي رسم لأمته فيها كيفية أداء هذه الفريضة، وحث على تلقي ما يصدر منه من قول وفعل، فقال صلى الله عليه وسلم: «لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه». مسلم ٢/٩٤٣/١٢٩٧.

وقال صلى الله عليه وسلم: «الحاجُّ والعُمَّارُ وفدُ الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم». صحيح الجامع ٣١٧٣.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنت جالسًا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في مسجد مِنى، فأتاه رجلٌ من الأنصار ورجل من ثقيف، فسلما، ثُمَّ قالا: يا رسول الله، جئنا نسألك فقال: «إنْ شئتُما أخبرتُكما بما جئتما تسألاني عنه فَعَلْتُ، وإن شئتما أن أمسكَ وتسألاني فعلتُ». فقالا: أخبرْنا يا رسول الله، فقال الثقفي للأنصاري: سل. فقال: أخبرني يا رسول الله. فقال: «جئتني تسألُني عن مخرجك من بيتكَ تَؤُمُّ البيتَ الحرامَ ومالكَ فيه، وعن ركعتيك بعد الطوافِ ومالك فيهما، وعن طوافِك بين الصفا والمروة ومالك فيه، وعن وقوفك عَشيَّة عرفةَ ومالك فيه، وعن رميك الجمار ومالك فيه، وعن نحرك ومالك فيه، مع الإفاضة، فقال: والذي بعثك بالحق، لَعَنْ هذا جئتُ أسألك. قال: فإنك إذا خرجت من بيتك تَؤُمُّ البيتَ الحرامَ، لا تضعُ ناقتُك خُفًا، ولا ترفعه، إلا كتب «الله» لك به حسنةً، ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتاك بعد الطواف، فكعتق رقبة من بني إسماعيل، وأما طوافُكَ بالصفا والمروة، فكعتق سبعين رقبة، وأما وقوفُك عشية عرفة، فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة يقول: عبادي جاؤني شُعثًا من كل فَجّ عميق يَرجون رحمتي، فلو كانت ذنوبُكم كعدد الرمل، أو كَقَطْرِ المطرِ، أو كزبد البحر، لغفرتها، أفيضوا عبادي

مغفورًا لكم، ولمن شفعتم له، وأما رميكَ الجمارَ، فلكَ بكلِّ حصاةٍ رَمَيْتَها تكفيرُ كبيرة من الموبقات، وأما نحرُك، فمدخورٌ لك عند ربك، وأما حِلاقُكَ رَأسَك، فلك بكل شعرةٍ حلقتها حسنةٌ، وتمحى عنك خطيئةٌ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك، فإنك تطوفُ ولا ذنبَ لك يأتي ملكٌ حتى يضعَ يديه بين كتفيك فيقول: اعملْ فيما تستقبلُ، فقد غُفِرَ لك ما مضى . صحيح الترغيب ١١١٢.

وإذا مات الحاج كُتب له ثواب الحاج إلى يوم القيامة. قال صلى الله عليه وسلم: «من خرجَ حاجًا فمات، كُتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمرًا فمات، كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة.صحيح الترغيب ١١١٤.

وقال صلى الله عليه وسلم: «في المُحرِمِ الذي وقصته ناقته فمات: اغسلوه بماء وسدر، وكفِّنوه بثوبيه، ولا تُخمرِّوا رأسه، ولا تُحنطوه، فإنه يُبعث يوم القيامة ملبيًا». [متفق عليه].

وللحج فضائل وثمار كثيرة منها :

١ – فيه إبعاد الفقر وتكفير الذنوب :

عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِى الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ. أخرجه النسائي ١١٥/٥ وفي "الكبرى" ٣٥٩٦ .حسن صحيح ، الصحيحة (١٢٠٠) ، المشكاة (٢٥٢٤) ، التعليق الرغيب (٢ / ١١٧ – ١١٨) . عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أدِيمُوا الحَجَّ والعُمْرَةَ ، فإنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ والذُّنُوبَ ، كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحديد "٠ (رواه الطبراني) أنظر صحيح الجامع رقم : ٢٥٣ ٠

قال العلماء : خصّ النبي صلى الله عليه وسلم الحديد الذي هو أشَدُّ المُنْطَبِعَاتِ صلابة وأكثرها خُبثا ، إشارة إلى أن الفقر وإن اشتدَّ ، والذُّنُوبُ وإنْ خَبُثَتْ وعَظُمَتْ ، يُزيلَهُمَا المداومة على النُّسُكَيْنِ : الحَجّ والعُمْرَة ٠

٢ – أنه يعدل الجهاد في سبيل الله:

عنْ عَائِشَةَ ، أم الْمُؤمِنِينَ ، رَضِيَ الله عَنْهَا ؛انَّهَا قَالَتْ: يَارَسُولَ اللهِ ، نَرَى الْجِهَادَ افْضَلَ الْعَمَلِ . افَلا نُجَاهِدُ ؟ قال : لا . لَكُنَّ افْضَلُ الْجِهَادِ حجَ مَبْرُور. أخرجه أحمد ٦٧/٦و"البُخَارِي" ٣٩/٤ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ:جِهَادُ الْكَبِيرِ ، وَالصَّغِيرِ ، وَالضَّعِيفِ ، وَالْمَرْأَةِ : الْحَجُّ ، وَالْعُمْرَةُ.أخرجه النسائي ١١٣/٥ ، وفي "الكبرى" ٣٥٩٢ وأخرجه أحمد ٤٢١/٢(٩٤٤٠) .

٣ – الحج المبرور جزاؤه الجنة :

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةَ.أخرجه أحمد ٤٤٧/٣(١٥٧٩٢) .

٤ – محو الخطايا والسيئات ورفع الدرجات :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ حَتَّى يَرْجِعَ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ.أخرجه عبد الرَّزَّاق (٨٨٠٠) و"الدارِمِي" ١٧٩٦ و"البُخاري" ١٥٢١ .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما ترفع إبل الحاجِّ رِجْلاً ، ولا تضع يَداً ، إلا كَتَبَ الله له بِهَا حَسَنَةً ، أو مَحَا عنه سَيئَةً ، أو رَفَعَهُ بِهَا دَرَجَةً " (رواه البيهقي) أنظر صحيح الترغيب رقم : ١١٠٦ ٠

٥ – الحج أفضل الأعمال بعد الإيمان والجهاد :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الأعمال أفضل ؟ قال : " إيمان بالله " قال : ثم ماذا ؟ قال : " الجِهَادُ في سبيل الله " قال : ثم ماذا ؟ قال : "حَجٌّ مَبْرُورٌ "٠ (رواه النسائي) أنظر صحيح سنن النسائي رقم : ٢٩٣٣ ٠

٦ – فضل التلبية والطواف :

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلاَّ لَبَّى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ ، أَوْ شَجَرٍ ، أَوْ مَدَرٍ ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرْضُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا.صحيح الترمذي . انظر حديث رقم : ٥٧٧٠ في صحيح الجامع .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من طاف بهذا البيت سبوعاً فأحصاه كان كعتق رقبة " صحيح الترمذي . وقال " لا يضع قدماً ولا يرفع أخرى إلا حط الله عنه بها خطيئة وكتبت له بها حسنة. "

٧ – فضل مسح الحجر والركن اليماني :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن مسحهما كفارة الخطايا " صحيح الترمذي .

٨ – فضل يوم عرفة :

قال رسول الله " ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول " ما أراد هؤلاء ؟ " رواه مسلم .

٩– الحجاج والعمار وفد الله :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، أَنَّهُ قَالَ:الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ ، إِنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ ، وَإِنِ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ.أخرجه ابن ماجة (٢٨٩٢) .

و يقول في الحديث القدسي " عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله: إن عبدا صححت له جسمه، ووسعت عليه في المعيشة يمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إلي لمحروم" وأخرجه أبو يعلى ٢/٦٣، والخطيب في "تاريخه"٣٢٨/٨، والبيهقي ٢٦٢/٥ من طرق عن خلف بن خليفة، بهذا الإسناد .

وذكره الهيثمي في "المجمع" ٢٠٦/٣، وقال: رواه أبو يعلى والطبراني في "الأوسط"، ورجال الجميع رجال الصحيح. السلسلة الصحيحة " ٤ / ٢٢ .

١٠- نيل شرف فضل الصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبوي:

فإن الرحال لا تشد إلا هذه المساجد فقط ، تعظيما لشأنها ، ورفعة لقدرها ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَذَا ، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى " (رواه مسلم)

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلَ ؟ قَالَ : " الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ " قَالَ : قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : "الْمَسْجِدُ الأَقْصَى " قُلْتُ : كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : " أَرْبَعُونَ سَنَةً ، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ " ٠ (رواه البخاري) ." الْمَسْجِدُ الأَقْصَى " يعني : مسجد بيت المقدس ، وقيل له الأقصى لبعد المسافة بينه وبين الكعبة ٠ومعنى " فَصَلِّهْ فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ " أي : إنَّ الأجْرَ والثَّواب في أداء الصَّلاة إذا حَضَرَ وقتها ٠

وفضل الصلاة في المسجد الحرام فضل كبير وعظيم ، عن جابرٍ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ"٠ (رواه ابن ماجه) أنظر صحيح سنن ابن ماجه رقم: ١١٥٥ ٠

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " فَضْلُ الصَّلاة في المسجد الحرام على غيره مِائَةِ أَلْفِ صلاة، و في مسجدي أَلَفِ صلاة، وفي مسجد بيت المقدس خَمْسُمِائَة صلاة " (رواه البيهقي) صحيح الجامع رقم: ٤٢١١ ٠

عن عبد اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنْ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ صَلاَةٍ فِي هَذَا "٠ (رواه أحمد) صحيح الجامع رقم: ٣٨٤١ ٠

عن عَبْدِ اللَّهِ بنِ زَيْدٍ الْمَازِنِيِّ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: " مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ"٠ (رواه مسلم) .

لذا فقد كان السلف يحرصون على الحج ، العلماء والخلفاء ، والقادة وغيرهم ، حتى إن الخليفة العباسي هارون الرشيد كان يغزو عاماً ويحج عاماً . وكان بعض الصالحين يتحسر إذا فاته الحج ، ويقول " لئن سار القوم وقعدنا ، وقربوا وبعدنا فما يؤمننا أن نكون ممن " كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين " .

وللحج فوائد وآداب كثيرة منها :

١- التوحيد والطاعة والانقياد لله رب العالمين :

قال تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}[الحج:٢٦]، وبعدها بقليل، حذر سبحانه من الشرك ونجاسته فقال: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}[الحج:٣٠]، فالمسلم يخلص العبادة والتوحيد لله رب العالمين ، كما أنه يخلص الانقياد لله ،وهذا نراه جلياً وواضحاً في الحج ،فالطواف والسعي سبعة أشواط والرمي بسبع حصيات والوقوف بعرفة في يوم عرفة في التاسع من ذي الحجة إلى غير ذلك.

ولا حق لأحد أن يغير أو يبدل ما شرعه الله وهذا يغرس في النفس صدق العبادة وإخلاصها لله عز وجل وكمال التسليم لأمره وأن الشرع ما شرعه الله لا تلك البدع والضلالات التي هي من صنع البشر .

كما إن الحج عبادة توقيفية فلا اجتهاد فيها مع النصوص الشرعية فهي حق لله عزوجل لا حق لأحد فيها فهو المشرع لهذه العبادات وحده كما قال تعالى " أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) سورة الشورى .

عَنْ عَابِسِ بْنِ رَبِيعَةَ ، قَالَ : رَأَيْتُ عُمَرَ أَتَى الْحَجَرَ ، فَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ ، إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ ، لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَبَّلَكَ ، مَا قَبَّلْتُكَ ، ثُمَّ دَنَا فَقَبَّلَهُ.أخرجه أحمد١/١٦(٩٩) و"البُخَارِي"٢/١٨٣(١٥٩٧) و"مسلم"٤/٦٧(٣٠٤٦) .

ولترسيخ عقيدة التوحيد كان شعار الحج (لبيك اللهم لبيك) شعار التوحيد ، يقول جابر بن عبدالله رضي الله عنه في وصف حجة النبي صلى الله عليه وسلم (فأهل بالتوحيد لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) ، فهي تربية للنفس على توحيد الله والإخلاص له ونبذ كل من سواه من المعبودات الباطلة .

ولذا يقول ابن القيم في معنى هذه التلبية:(أخلصت لبي وقلبي لك وجعلت لك لبي وخالصتي) .

٣- تربية المسلم على النظام والتوازن والاعتدال :

إن الإسلام دين عدل ووسطية حتى مع حقوق المسلم على نفسه ،فالإسلام لا يأمر بأمر فيه ضرر أو إجحاف بل كل أوامره ونواهيه تصب في مصلحة من ينتمي إليه فعلى سبيل المثال يقول الله تعالى : " لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) سورة الحج .

فالحج يجمع بين مصالح الفرد الدنيوية من بيع وشراء وغيرها وبين مقاصد هذه العبادة من ذكر وصلاة ودعاء وغير ذلك .

وهذا يدلنا على أن الإسلام ما منع من شيء إلا وأباح أشياء أخرى وهذه هي عين مراعاة حاجات الإنسان .

فالحج في شهر ذي الحجة وصيام رمضان في شهر رمضان ومواقيت الصلاة في وقت محدد معروف وغيرها من العبادات فتلك هي منظومة تربي المسلم على أن يكون منضبطاً في حياته ويزداد ذلك حينما يكون في أيام فاضلة كأيام الحج يتنقل فيها الحاج من عبادة إلى عبادة ليعود المسلم نفسه على أن يكون منضبطاً فلا يقدم شهر الحج عن شهره ولا يوم عرفة عن يومها ولا الرمي عن وقته ولا الطواف عن موعده.

فمواقيت العبادة في الحج منضبطة فلا يمكن أن يؤخر بعضها ولا يقدمها ولو لثواني .

وهي دعوة لأن يتميز المسلم عن غيره بانضباطه في مواعيده وأعماله فيعتاد الانضباط في حياته كلها ومع الآخرين .

٣- تحقيق مبدأ الأخوة والتعارف والمساواة .

فحينما يقصد الحجاج من كل بلاد الدنيا مكاناً واحداً في وقت واحد على هيئة واحدة ويؤدون منسكاً واحداً يتحقق في النفوس أخوة الدين التي جمعتنا ينادي كل أخ أخاه ويحاكيه متذكراً تلك الأخوة التي عاشها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتي كانت من أول الأعمال التي قام بها حين قدم المدينة مهاجراً فآخى بين المهاجرين والأنصار فتحقق بذلك أخوة الدين .

ولنتأمل قول الله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}الحجرات ١٠ .

تلك الرابطة التي ارتضاها الله عزوجل لأهل الإيمان وهي أقوى من أخوة النسب فما أجمل تلك الأخوة وما أسماها لأنها قامت على أساس هذا الدين فالمحرك والدافع لها هو هذا الدين.

ولنتذكر وصية الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا) فيعطف المسلم على أخيه المسلم وينصر قضيته ويهمه ما أهمه وهذا سر عجيب من أسرار الحج.

في الحج يتحقق ذلك المعنى الرفيع كما أخبر الله بذلك فقال تعالى{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣سورة الحجرات .

وإن اختلفت اللغات والأوطان والمشارب فالتعارف من أكبر أسباب الألفة بين أهل الإسلام.

وحينما نقرأ هذا الحديث يقودنا لشعور صادق وحس عجيب، نْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ:الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ.أخرجه أحمد ٢/٢٩٥(٧٩٢٢) و"البُخاري" في "الأدب المفرد" ٩٠١ و"مسلم" .،فما أجمل هذه الأرواح وهي تتعارف لتتآلف وتتوحد حباً ودفاعاً ونشراً لهذا الدين.

والخير للمؤمن أن يكون ممن يألفه الناس ويأنسوا به عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ:الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ ، وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ.أخرجه أحمد ٢/٤٠٠(٩١٨٧) .

ومبدأ المساواة يتجلى واضحاً في الحج حيث يجتمع المسلمون من كل جنس ولغة ولون ووطن في صعيد واحد لباسهم واحد وعملهم واحد ومكانهم واحد ووقتهم واحد وحدة في المشاعر ووحدة في الشعائر ،وحدة في الهدف ، ووحدة في العمل ،ووحدة في القول.

عن أبي نضرة قال حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق فقال (إن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى). وهي دعوة للتواضع وهضم النفس لتعرف حقيقة هذه الدنيا وأنها فانية وزائلة.

٤- غرس الأخلاق والخصال الحميدة .

الحج مدرسة الأخلاق وميدان تربية النفس على معالي الأخلاق، والتباعد والتجافي عن سيء الأخلاق ورديئها .

يحدوه في ذلك خلق سيد البشر صلى الله عليه وسلم الذي كان مناراً لكل حائر في ظلمة الأخلاق، مستشعراً تلك النداءات النبوية والوصايا الإيمانية بالتخلق بكريم الأخلاق والاتصاف بجميل الطباع .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ.أخرجه أحمد ٦/٤٤٢(٢٨٠٤٤) و"البُخَارِي" ، فِي "الأدب المفرد" ٢٧٠ و"أبو داود"٤٧٩٩ و"التِّرمذي"٢٠٠٣ .

قال تعالى : الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) سورة البقرة .

مثل كظم الغيظ وترك الجدال والمخاصمة. قال تعالى: {وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}[البقرة:١٩٧]، قال عطاء:

الجدال: أن تجادل صاحبك حتى تغضبه ويغضبك، والأظهر أن المراد بنفي الجدال في الآية: «نفي جنس» مراد به المبالغة في النهي عن الجدال والمذموم فقط، وهو النزاع والمخاصمة في غير فائدة شرعية.

والرفق واللين والسكينة. قالﷺ عندما سمع زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للإبل في الدفع من عرفة: «أيها الناس، عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع» خرّجه البخاري في صحيحه، والإيضاع الإسراع، ومن هذا أخذ عمر بن عبد العزيز قوله لما خطب بعرفة: «ليس السابق من سبق بعيره وفرسه، ولكن السابق من غُفر له».

ولذلك تقول امرأةٌ في الجاهلية لولدها:

أبنيَّ لا تظلم بمكة * لا الصغير ولا الكبير**

أبنيَّ قد جربتها * فوجدتُ ظالِمَها يبورْ**

الله آمنَها وما * بُنِيت بساحتها القصور**

ولقد غَزاها تُبَّعٌ * فَكَسى بَنِيتَّهَا الحرير**

وإنكار الذات والاندماج في المجموع في الحج ينكر العبد ذاته، ويتجرد عما يستطيع أن يخصّ نفسه بـه، ويندمج مع إخوانه الحجيج في اللباس والأكل والهتاف والتنقل والعمل، فيبتعد عنـه العجـب والغـرور، ويطامن من كبريائه.

والتربية على التواضع. ويظهر ذلك جلياً في الوحدة بين جميع الحجيج في الشعائر والمشاعر، وإلغاء أثر الفوارق المادية بينهم من لغة ودم ومال.... وقد كان من خطبة النبيﷺ في حجة الوداع: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربـي، ولا لأحمـر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى» خرّجه أحمد وهو صحيح.

٥- تعويد النفس على الخشونة وصعوبة العيش.

فالحاج يحرم نفسه كثير من الترف الذي كان قد اعتاد عليه قبل إحرامه ويحرم نفسه من مباحـات كـان يتمتع بها قبل أن يهل بحجه ،مثل الطيب وحلق الشعر والصيد وغيرها من محظـورات الإحـرام ليعـود المسلم نفسه على الصبر على شظف العيش وشدته.

كما أن كثرة العدد في مكان مزدحم ضيق والتنقل بين المشاعر مع البعد والمشقة كل ذلك لتعويد الـنفس على تحمل الصعوبات.

ولأجل أن يتذكر المسلم أولئك الذين يعيشون في شظف وضيق وشدة من العيش وفي حاجة ماسة للطعـام والشراب والكساء،مما يجعله يغرس في نفسه حقيقة دعانا الرسول صلى الله عليه وسلم إليها بقوله عـن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، أَنَّهُ قَالَ: لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ، أَوْ لِجَـارِهِ ، مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.أخرجه أحمد ١٧٦/٣(١٢٨٣٢) و"الدارِمِي" ٢٧٤٠ و"البُخَارِيّ" ١٣ .

فالحج تربية على القناعة في اللباس حيث يلبس خرقة من قطعتين فتكفيه، والقناعة فـي الـسكن حيـث يسكن في مكان بقدر نومه فيغنيه ،والقناعة في الطعام حيث يأكل من الطعام وربما نفسه لا تشتهيه، فمـا أعظمها من مقاصد .

٦- تذكر الحقيقة الغائبة.

فلباس الإحرام يذكر المسلم بحقيقة غابت عن تفكيرنا وكرهتها نفوسنا وكم نهرب منهـا ولا بـد لهـا أن تدركنا وأن نشرب من كأسها، إنها مفارقة هذه الحياة والانتقال إلى حياة البرزخ ثم الحياة الآخـرة ،كمـا أخبرنا الله عنها بقوله: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) سورة العنكبوت .

فالحاج حينما يلبس الإحرام فإنه يشابه تلك الأكفان التي يكفن بها الميت ليلحد في قبـره ،كمـا أن ذلـك الجمع الغفير من الحجاج في مكان واحد وكل واحد منهم يلهج لسانه بدعاء الله أن يتقبلـه ويعتقـه مـن ناره، يذكره بموقف المحشر الذي يجمع فيه جميع الخلق وكل فرد قد شغل بنفسه عن غيره كما وصـفهم الله بقوله يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّـا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) سورة

الحج . فحريٌ بالمسلم أن يكون دائم القرب من الله بعيداً عن معصيته ومخالفة أمره مستعداً لهذه الحقيقة في أي وقت حلت به وأدركته بعمل صالح يفرح به ويُسر يوم أن يلقى الله ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَكْثِرُو ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ. يَعْنِي الْمَوْتَ.أخرجه أحمد ٢/٢٩٢(٧٩١٢) و"التِّرمذي" ٢٣٠٧ و"النَّسائي" ٤/٤ .

قال ابن القيم:

فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلُّ الْقُلُوبِ تُحِبُّهُ * * * وَتَخْشَعُ إِجْلَالًا لَهُ وَتُعَظِّمُ

وَرَاحُوا إِلَى النَّعْرِيفِ يَرْجُونَ رَحْمَةً * * *وَمَغْفِرَةً مِمَّنْ يَجُودُ وَيُكْرِمُ

فَلِلَّهِ ذَاكَ الْمَوْقِفُ الْأَعْظَمُ الَّذِي * * *كَمَوْقِفِ يَوْمِ الْعَرْضِ بَلْ ذَاكَ أَعْظَمُ

حين قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وهو يريد مكة، أرسل إلى عالمها الجليل أبي حازم فلما دخل عليه قال سليمان: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟.فقال: لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنقلوا من العمران إلى الخراب.فقال سليمان: كيف القدوم على الله؟.قال: يا أمير المؤمنين، أما المحسن كالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما لي عند الله؟.قال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله حيث قال:{ إن الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم}.قال سليمان: فأين رحمة الله؟.قال: قريب من المحسنين.قال: يا أبا حازم أي عباد الله أكرم؟.فقال: أهل البر والتقوى.قال: فأي الأعمال أفضل؟.فقال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.قال: أي الكلام أسمع؟.فقال: قول الحق عند من تخاف وترجو.قال: فأي المؤمنين أخسر؟.فقال: رجل خطأ في هوى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنياه.قال سليمان: ما تقول فيما نحن فيه؟.فقال: أو تعفيني؟.

قال: لا بد، فإنها نصيحة تلقيها اليّ.فقال: إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة المسلمين ولا رضا منهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقد ارتحلوا فلا شعرت بما قالوا وما قيل لهم.فقال رجل من جلسائه: بئسما قلت.قال أبو حازم: إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.فقال سليمان: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح للناس؟.قال: تدع الصلف وتستمسك بالعروة وتقسم بالسويّة.قال: كيف المأخذ به؟.

قال: أن تأخذ المال في حقه وتضعه في أهله. فالتفت إلى سالم ، فلما رآه دنا وقبل رأسه وقال: ألك إلي حاجة؟ فاحمر وجه سالم غضباً، وقال: أفي بيت الله الواحد الأحد تقول هذا الكلام؟! أما تستحي؟! فتركه هشام ، فلما انتهى تصدى له الخليفة خارج الحرم وقال: ألك حاجة؟ قال: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال: لا. من حوائج الدنيا. قال: والله ما سألت حوائج الدنيا ممن يملكها فكيف أسألها منك!! فاختلع يده من يده.قال: يا أبا حازم ارفع إلي حوائجك؟.قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنة؟.قال:ليس ذلك اليّ.قال: فلا حاجة لي غيرها.ثم قام فأرسل إليه بمائة دينار فردها إليه ولم يقبلها . وفيات الأعيان ٢\٤٢٣ . سير أعلام النبلاء ٨/٢٢ ، البداية والنهاية ٩ / ٢٦٢ المنتظم لابن الجوزي ٢/٣٧٠ .

في مدرسة الحج

عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، كَلِمَاتٌ أَسْأَلُ عَنْهُنَّ ، قَالَ : اجْلِسْ ، وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، كَلِمَاتٌ أَسْأَلُ عَنْهُنَّ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَبَقَكَ الأَنْصَارِيُّ ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ : إِنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ ، وَإِنَّ لِلْغَرِيبِ حَقًّا ، فَابْدَأْ بِهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى الثَّقَفِيِّ ، فَقَالَ : إِنْ شِئْتَ أَجَبْتُكَ عَمَّا كُنْتَ تَسْأَلُ ، وَإِنْ شِئْتَ سَأَلْتَنِي وَأُخْبِرُكَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، بَلْ أَجِبْنِي عَمَّا كُنْتُ أَسْأَلُكَ ، قَالَ : جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الرُّكُوعِ ، وَالسُّجُودِ ، وَالصَّلاَةِ ، وَالصَّوْمِ ، فَقَالَ : لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأْتَ مِمَّا كَانَ فِي نَفْسِي شَيْئًا ، قَالَ : فَإِذَا رَكَعْتَ ، فَضَعْ رَاحَتَيْكَ عَلَى رُكْبَتَيْكَ ، ثُمَّ فَرِّجْ بَيْنَ أَصَابِعِكَ ، ثُمَّ أَمْكُثْ حَتَّى يَأْخُذَ كُلُّ عُضْوٍ مَأْخَذَهُ ، وَإِذَا سَجَدْتَ ، فَمَكِّنْ جَبْهَتَكَ ، وَلاَ تَنْقُرُ نَقْرًا ، وَصَلِّ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، فَإِنْ أَنَا صَلَّيْتُ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : فَأَنْتَ إِذًا مُصَلِّي ، وَصُمْ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، ثَلاَثَ عَشْرَةَ ، وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ ، وَخَمْسَ عَشْرَةَ ، فَقَامَ الثَّقَفِيُّ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الأَنْصَارِيِّ ، فَقَالَ : إِنْ شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ عَمَّا جِئْتَ تَسْأَلُ ، وَإِنْ شِئْتَ سَأَلْتَنِي فَأُخْبِرُكَ ، فَقَالَ : لاَ يَا نَبِيَّ اللهِ ، أَخْبِرَنِي عَمَّا جِئْتُ أَسْأَلُكَ ، قَالَ : جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْحَاجِّ مَا لَهُ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ ؟ وَمَا لَهُ حِينَ يَقُومُ بِعَرَفَاتٍ ؟ وَمَا لَهُ حِينَ يَرْمِي الْجِمَارَ ؟ وَمَا لَهُ حِينَ يَحْلِقُ رَأْسَهُ ؟ وَمَا لَهُ حِينَ يَقْضِي آخِرَ طَوَافٍ بِالْبَيْتِ ؟ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأْتَ مِمَّا كَانَ فِي نَفْسِي شَيْئًا ، قَالَ : فَإِنَّ لَهُ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ أَنَّ رَاحِلَتَهُ لاَ تَخْطُو خُطْوَةً إِلاَّ كُتِبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ ، أَوْ حُطَّتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ ، فَإِذَا وَقَفَ بِعَرَفَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَقُولُ : انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي شُعْثًا غُبْرًا ، اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ ، وَإِنْ كَانَ عَدَدَ قَطْرِ السَّمَاءِ وَرَمْلِ عَالِجٍ ، وَإِذَا رَمَى الْجِمَارَ لاَ يَدْرِي أَحَدٌ مَا لَهُ حَتَّى يُوَفَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا حَلَقَ رَأْسَهُ فَلَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَقَطَتْ مِنْ رَأْسِهِ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا قَضَى آخِرَ طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. أخرجه ابن حبان (٢٠٦/٥ ، رقم ١٨٨٧) ، والطبرانى فى الكبير (٤٢٥/١٢ ، رقم ١٣٥٦٦) صحيح الترغيب والترهيب ١٧/٢ .

قال الشاعر :

اَلراحلونَ إلى ديار أحبتي * * * عتَبي عليكمْ.. قد أخذتم مهجتي
وتركتمُ جسدي غريباً هاهنا * * * عجَبي له ! يحيا هنا في غربةٍ !
قلبي .. و يهفو للمدينة طائراً * * * للمسجد النبوي عند الروضة
هي واحةٌ نرتام في أفيائها * * * بطريق عودتنا لدار الجنةِ

فلا تحرم نفسك من تلك الأجور وعظيم الهبات فإننا جميعا في أمس الحاجة إلى الحسنات، ومغفرة الذنوب والسيئات، فلماذا التسويف والتأجيل، ؟! ولماذا الفتور والكسل وأنت مأمور بإحسان العمل .

الدرس الثاني

ثلاث رسائل ما قبل الحج

١- الاخلاص وتجديد النية :

ميزان الأعمال وشرط قبولها حسن المقصد ، وتحري الإخلاص ، والحج يحتاج إلى نية خالصة صادقة ، ونسك موافق لهدي اللإسلام ، فبعض الناس يخرج إلى الحج ولا هم له إلا الحصول على لقب (حاج) ، فهو خرج للناس وليس لله تعالى ، والله تعالى يقول في محكم تنزيله: ﴿ وأتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله) (١٩٦ . البقرة) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَ صلى الله عليه وسلم يقول: " مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ ولَدَتْهُ أمُّهُ "٠ (رواه البخاري) .

فدلَّتْ الآية الكريمة ﴿ وأتِمُّوا ﴾ والحديث الشريف "مَنْ حَجَّ لله" على وجوب إخلاص النِّية لله عزّ وجلّ في الحَجِّ، وأنَّ قَبُولَ الأعمال الصالحة مُتَوقف على تَمَامِ النِّية، أي صلاحها وإخلاصها لله تبارك وتعالى، فمن لم يُنقي سريرته من شوائب الرِّياء فليس له من حَجَّتِه سوى المشقة والتعب٠ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : حجَّ النبي صلى الله عليه وسلم عَلَى رَحْلٍ رَثٍّ ، وقَطِيفَةٍ تُسَاوي أربعة دراهم أوْ لا تُسَاوي ، ثم قال : " اللَّهم حَجَّةٌ لا رِيَاءَ فيها ولا سُمْعَةً " ٠ (رواه ابن ماجه) صحيح سنن ابن ماجه رقم : ٢٣٣٧ ٠

فالرِّياء ضد الإخلاص ، والإخلاص هو أن تقصد بعملك وَجْهَ الله تعالى ، أمَّا الرِّياء فمشتق من الرُؤيَةِ وهو: أن يُعْمَلَ العَمَلُ لِيرَاهُ النَّاس ، والسُّمْعَةُ مشتقة من السَّمَعِ وهو: أن يُعْمَلَ العَمَلُ لِيَسْمَعَهُ النَّاس ، وكلاهما مُحْبِطٌ للعمل٠قال العلماء : الحديث دليل على تحريم الرِّياء والحثِّ على وجوب الإخلاص في الأعمال ، وفي الحديث دليل على أن الفضائل الواردة في فضل الحَجِّ إنما هي لمن أراد بِهَا وجْهَ الله تعالى مُخْلِصًا ، ومن قصد بعمله أن يَسْمَعَهُ النَّاس ويَروه لِيُعَظِمُوهُ وتعلو منزلته عندهم ، حَصَلَ له ما نَوَاهُ وقَصَدَهُ من ثواب الدنيا وكان ذلك جزاءه على عمله ، ولا يُثاب عليه في الآخرة ، فَشَرْطُ حُصُولِ ونَيْلِ ثواب الآخرة : إخْلاَصُ النِّيةِ لله تعالى ٠وفي قوله : رَحْلٍ رَثٍّ ، إشارة إلى أن من علامات الإخلاص عدم المبالغة في النَّفَقَةِ والمَصْرَفِ بحيث يخرج الحَاجُّ والمُعْتَمِرُ من حَدِّ القَصْدِ والاعتدال إلى السَّرف والخُيَلاَء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ثَلاَثَةٌ في ضَمَانِ الله عزَّ وجلَّ: رَجُلٌ خَرَجَ إلى مَسْجِدٍ من مَسَاجِدِ الله عزَّ وجلَّ، ورَجُلٌ خَرَجَ غَازِياً في سبيل الله تعالى ، ورَجُلٌ خَرَجَ حَاجًّا "٠ (رواه أبو نعيم) انظر صحيح الجامع رقم : ٣٠٥١ ٠

فالأعمال ترتبط كلها بالنيات ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب – رضي الله عنه – قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – "؟إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.أخرجه"أحمد"١/٢٥(١٦٨) و"البُخَارِي"١/٢(١) و"مسلم"٦/٤٨(٤٩٦٢) . و"أبو داود"٢٢٠١ و"ابن ماجة"٤٢٢٧ و"التِّرمذي"١٦٤٧ و"النَّسائي"١/٥٨ .

وقال ابن حجر في شرح هذا الحديث : " وَصَّاهُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِي عِبَادَته . وَعَنْ أَبِي عَبْد الْمَلِك الْبَوْنِيّ قَالَ : مُنَاسَبَة الْحَدِيث لِلتَّرْجَمَةِ أَنَّ بَدْء الْوَحْي كَانَ بِالنِّيَّةِ ؛ لِأَنَّ اللَّه تَعَالَى فَطَرَ مُحَمَّدًا عَلَى التَّوْحِيد وَبَغَّضَ إِلَيْهِ الْأَوْثَان وَوَهَبَ لَهُ أَوَّل أَسْبَاب النُّبُوَّة وَهِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَخْلَصَ إِلَى اللَّه فِي ذَلِكَ فَكَانَ يَتَعَبَّد بِغَارِ حِرَاء فَقَبِلَ اللَّه عَمَله وَأَتَمَّ لَهُ النِّعْمَة . وَقَالَ الْمُهَلَّب مَا مُحَصَّله : قَصَدَ الْبُخَارِيّ الْإِخْبَار عَنْ حَال النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَال مَنْشَئِهِ وَأَنَّ اللَّه بَغَّضَ إِلَيْهِ الْأَوْثَان وَحَبَّبَ إِلَيْهِ خِلَال الْخَيْر وَلُزُوم الْوَحْدَة فِرَارًا مِنْ قُرَنَاء السُّوء ، فَلَمَّا لَزِمَ ذَلِكَ أَعْطَاهُ اللَّه عَلَى قَدْر نِيَّته وَوَهَبَ لَهُ النُّبُوَّة كَمَا يُقَال الْفَوَاتِح عُنْوَان الْخَوَاتِم .ابن حجر: مقدمة فتح الباري ١/٢.

وقال تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١).سورة الإسراء .

وعَنْ جَابِرٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ.أخرجه ابن ماجة (٤٢٣٠) .

عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلاَ أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ وَلاَ قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلاَّ وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ فَقَالَ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ. أخرجه أحمد ٣/١٦٠وأبو داود ٢٥٠٨ .

عَنْ جَابِرٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، بَعْدَ أَنْ رَجَعْنَا:إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لأَقْوَامًا ، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا ، وَلاَ هَبَطْتُمْ وَادِيًا ، إِلاَّ وَهُمْ مَعَكُمْ ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ. أخرجه أحمد ٣/٣٤١(١٤٧٣١) .

يَا رَاحِلِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ * * * رُحْتُمْ جُسُومًا وَرُحْنَا نَحْنُ أَرْوَاحَا

إِنَّا أَقَمْنَا لِعُذْرٍ قَدْ أَلَمَّ بِنَا * * * * وَمَن أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ فَقَدْ رَاحَا

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ. أخرجه أحمد ٢/٤٨٤(٧٨١٤) و"مسلم" ٨/١١ و"ابن ماجة" ٤١٤٣.

والمرء يثاب على قدر نيته ، فعَنْ أَبُي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيُّ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :ثَلاَثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ ، قَالَ : مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً ، فَصَبَرَ عَلَيْهَا ، إِلاَّ زَادَهُ اللهُ عِزًّا ، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ ، إِلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ ، قَالَ : إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ : عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْمًا ، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ لِلهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً ، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ ، يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا ، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ لِلهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا ، فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ. أخرجه أحمد ٤/٢٣١ (١٨١٩٤) و"التِّرمذي" ٢٣٢٥ قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : ٣٠٢٤ في صحيح الجامع.

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما – عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِيمَا يَرْوِى عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. أخرجه أحمد ١/٢٢٧(٢٠٠١) و"الدارمي" ٢٧٨٦ و"البُخَارِي" ٨/١٢٨(٦٤٩١) و"مسلم" ١/٨٣(٢٥٦) .

ولابد قبل العمل من استحضار النية من تجريدها من كل الشوائب والرغبات الذاتية والدنيوية، وإخلاصها لله تعالى في كل عمل من أعمال الآخرة، حتى يجوز القبول عند الله ، ذلك أن لكل عمل صالح ركنين لا يقبل عند الله إلا بهما:

أولهما: الإخلاص وتصحيح النية.

وثانيهما: موافقة السنة ومنهاج الشرع.

وبالركن الأول تتحقق صحة الباطن، وبالثاني تتحقق صحة الظاهر.

قال ابن مفلح: العلم أفضل الأعمال لمن صحت نيته ، قيل : فأي شيء تصحيح النية ؟ قال : ينوي أن يتواضع فيه وينفي عنه الجهل .السفاريني : لوامع الأنوار البهية ٢/٤٢١.

ومما روى عن ابن مسعود: لا ينفع قول إلا بعمل، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا مما وافق السنة.

وقال يحيى بن أبي كثير: تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل.

وقال سفيان الثوري: ما عالجت شيئا أشد على من نيتي، لأنها تنقلب علي.

فإذا صدقت النية من المصحِّح حصل له الأجر والمثوبة عند الله سبحانه وتعالى، وإذا كان غير ذلك حبط عمله وخسر ، وإن ظن أنه قد أحسن صنعا ، قال تعالى : " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) سورة الكهف.

وقال : " لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) سورة النساء.

٢- التوبة والتحلل من المظالم :

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) التحريم ، وقال : " فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١)هود.

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، وَهُوَ عَمُّهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ ، مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي ، وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ. أخرجه مُسْلم ٩٣/٨(٧٠٦٠) .

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النهارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا " .أخرجه أحمد ٣٩٥/٤ ومسلم ٩٩/٨ . عن ابْنِ عُمَرَ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ.أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٤٤٧) .

عَنِ ابْنِ شُمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ ، قَالَ : حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ ، فَبَكَى طَوِيلاً ، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ : يَا أَبَتَاهُ ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِكَذَا ؟ أَمَا

بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِكَذَا ؟ قَالَ : فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقِ ثَلاَثٍ : لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنِّي ، وَلاَ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الإِسْلاَمَ فِي قَلْبِي ، أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَقُلْتُ : ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ ، قَالَ : فَقَبَضْتُ يَدِي ، قَالَ : مَا لَكَ يَا عَمْرُو ؟ قَالَ : قُلْتُ : أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ ، قَالَ : تَشْتَرِطُ بِمَاذَا ؟ قُلْتُ : أَنْ يُغْفَرَ لِي ، قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ . وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَلاَ أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ ، إِجْلاَلاً لَهُ ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ ، لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا ، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلاَ تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ ، وَلاَ نَارٌ ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا ، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ ، وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا ، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي .

– وفي رواية : عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَانِ بْنِ شُمَاسَةَ ، قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ الْوَفَاةُ بَكَى ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ: لِمَ تَبْكِي ؟ أَجَزَعًا عَلَى الْمَوْتِ ؟ فَقَالَ : لاَ وَاللهِ ، وَلَكِنْ مِمَّا بَعْدُ ، فَقَالَ لَهُ : قَدْ كُنْتَ عَلَى خَيْرٍ ، فَجَعَلَ يُذَكِّرُهُ صُحْبَةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَفُتُوحَهُ الشَّامَ ، فَقَالَ عَمْرٌو : تَرَكْتَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، إِنِّي كُنْتُ عَلَى ثَلاَثَةِ أَطْبَاقٍ ، لَيْسَ فِيهَا طَبَقٌ إِلاَّ قَدْ عَرَفْتُ نَفْسِي فِيهِ : كُنْتُ أَوَّلَ شَيْءٍ كَافِرًا ، وَكُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَلَوْ مُتُّ حِينَئِذٍ وَجَبَتْ لِيَ النَّارُ ، فَلَمَّا بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، كُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً مِنْهُ ، فَمَا مَلأْتُ عَيْنِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَلاَ رَاجَعْتُهُ فِيمَا أُرِيدُ ، حَتَّى لَحِقَ بِاللهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، حَيَاءً مِنْهُ ، فَلَو مُتُّ يَوْمَئِذٍ ، قَالَ النَّاسُ : هَنِيئًا لِعَمْرٍو، أَسْلَمَ وَكَانَ عَلَى خَيْرٍ ، فَمَاتَ فَرُجِيَ لَهُ الْجَنَّةُ ، ثُمَّ تَلَبَّسْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالسُّلْطَانِ ، وَأَشْيَاءَ ، فَلاَ أَدْرِي عَلَيَّ أَمْ لِي ، فَإِذَا مُتُّ فَلاَ تَبْكِيَنَّ عَلَيَّ ، وَلاَ تُتْبِعْنِي مَادِحًا وَلاَ نَارًا وَشُدُّوا عَلَيَّ إِزَارِي ، فَإِنِّي مُخَاصِمٌ ، وَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًّا ، فَإِنَّ جَنْبِيَ الأَيْمَنَ لَيْسَ بِأَحَقَّ بِالتُّرَابِ مِنْ جَنْبِيَ الأَيْسَرِ، وَلاَ تَجْعَلَنَّ فِي قَبْرِي خَشَبَةً وَلاَ حَجَرًا ، فَإِذَا وَارَيْتُمُونِي ، فَاقْعُدُوا عِنْدِي قَدْرَ نَحْرِ جَزُورٍ وَتَقْطِيعِهَا ، أَسْتَأْنِسْ بِكُمْ.

– وفي رواية : عَنِ ابْنِ شُمَاسَةَ ؛ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ ، قَالَ : لَمَّا أَلْقَى اللهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فِي قَلْبِي الإِسْلاَمَ ، قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لِيُبَايِعَنِي ، فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ ، فَقُلْتُ : لاَ أُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، حَتَّى تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي ، قَالَ : فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : يَا عَمْرُو ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ ؟ يَا عَمْرُو ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الذُّنُوبِ .

أخرجه أحمد ٤/١٩٩(١٧٩٣٣) و"مسلم"١/٧٨(٢٣٦) . و"ابن خزيمة"٢٥١٥ .

قال الشاعر :

يا ربِ إن عظُمت ذنوبِي كثرةً * * * فلقد علمتُ بأنَّ عفوكَ أعظمُ

إن كان لا يرجُوكَ إلاَّ محسنٌ * * * فمن الذي يدعو إليه المجرم

أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تضرعًا * * * فإذا رددتَ يدي فمن ذا يرحمُ

ما لِي إليكَ وسيلة إلاَّ الرجا * * * وجميلُ ظنِي ثُمَّ أنِي مسلمُ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وَفْدُ الله عزَّ وجلَّ ثَلاثَةٌ: الْغَازِي، وَالْحَاجُّ، وَالْمُعْتَمِرُ " ٠(رواه النسائي) صحيح سنن النسائي رقم : ٢٩٢٤ ٠

وَفْدُ الله أي : السائرون إلى الله سبحانه القادمون عليه تعالى٠

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو يعلم المقيمون ما للحاجّ عليهم من الحق لأتوهم حين يَقْدُمُونَ حتى يُقَبِّلُوا رواحلهم لأنَّهم وَفْدُ الله تعالى من جميع الناس٠

وللتوبة شروط منها :

إذا كان الذنب في حق الله عز وجل فشروط التوبة ثلاثة هي:

الندم والاستغفار ، العزم على عدم العودة والاصرار ، والتحلل من المظالم والأوزار .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [التحريم: ٨] .

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ؛ جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، طَهِّرْنِي ، فَقَالَ : وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ ، قَالَ : فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ جَاءَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، طَهِّرْنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : وَيْحَكَ ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ ، قَالَ : فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ جَاءَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، طَهِّرْنِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِثْلَ ذَلِكَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : فِيمَ أُطَهِّرُكَ ؟ فَقَالَ : مِنَ الزِّنَا ، فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَبِهِ جُنُونٌ ؟ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ ، فَقَالَ : أَشَرِبَ خَمْرًا ؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَزَنَيْتَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ ، فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ ، قَائِلٌ يَقُولُ : لَقَدْ هَلَكَ ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ، وَقَائِلٌ يَقُولُ : مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ ، أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ ، قَالَ : فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ ، أَوْ ثَلاَثَةً ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُمْ جُلُوسٌ ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ ، فَقَالَ : اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ ابْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : فَقَالُوا : غَفَرَ اللهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ.قَالَ : ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ ، مِنَ الأَزْدِ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، طَهِّرْنِي ، فَقَالَ: وَيْحَكِ ، ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ

وتُوبِي إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ ، قَالَ : وَمَا ذَاكِ ؟ قَالَتْ : إِنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزِّنَا ، فَقَالَ : آنْتِ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ ، فَقَالَ لَهَا : حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ ، قَالَ : فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، حَتَّى وَضَعَتْ ، قَالَ : فَأَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : قَدْ وَضَعَتِ الْغَامِدِيَّةُ ، فَقَالَ : إِذًا لاَ نَرْجُمُهَا وَنَدَعَ وَلَدَهَا صَغِيرًا ، لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ : إِلَيَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ ، قَالَ : فَرَجَمَهَا.أخرجه مُسْلم ١١٨/٥(٤٤٥٠) و"أبو داود" ٤٤٣٣ و"النَّسائي" ، في "الكبرى" ٧١٢٥ و٧١٤٨ .

وعن أبي نجيد عمران بن الحصين الخزاعي أن امرأة من جهينة أتت رسول الله وهي حُبلى من الزنا، فقالت: يا رسول الله! أصبتُ حدًّا فأقمه عليَّ، فدعا نبي الله صلى الله عليه وسلم وليها، فقال: "أحسن إليها، فإذا وضعت فائتني بها"، ففعل؛ فأمر بها نبي الله خ فشُدَّت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرُجمَت، ثم صلى عليها. فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟! فقال: "لقد تابت توبةً لو قُسمَت بينَ سبعين مِن أهلِ المدينةِ لوَسِعَتْهم، وهل وجدَت أفضلَ مِن أنْ جادَتْ بنفسِها للهِ عزَّ وجلَّ". [رواه مسلم] .

ومن شروط التوبة إذا كان هناك حقوق متعلقة بالعباد : أن ترد المظالم الى أهلها ، وهذه المظالم إما أن تتعلق بأمور مادية، أو بأمور غير مادية، فإن كانت المظالم مادية كاغتصاب المال فيجب على التائب أن يردها إلى أصحابها إن كانت موجودة، أو أن يتحللها منهم، وإن كانت المظالم غير مادية فيجب على التائب أن يطلب من المظلوم العفو عن ما بدر من ظلمه وأن يعمل على إرضائه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ:مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ ، قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ حِينَ لاَ يَكُونُ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ.

– وفي رواية : رَحِمَ اللهُ عَبْدًا كَانَتْ لأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عِرْضٍ أَوْ مَالٍ ، فَجَاءَهُ فَاسْتَحَلَّهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ وَلَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ حَمَّلُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ. أخرجه أحمد ٤٣٥/٢(٩٦١٣) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ:هَلْ تَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، قَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلاَةٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ.

– وفي رواية : تَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، قَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُقْضَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ

يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّـارِ. أخرجه أحمد ٣٠٣/٢(٨٠١٦) و"مسلم" ٦٦٧١ و"التِّرمذي" ٢٤١٨ .

كان رسول الله صـلى الله عليه وسـلم في بدر يعدل الصفوف في غزوة بدر الكبرى ويقوم بتسويتها لكي تكون مستقيمة متراصة، وبيده سهم لا ريش له يعدل به الصف، فرأى رجلاً اسمه سواد بن غزية رضي الله عنه ، وقد خرج من الصف فطعنه صلى الله عليه وسلم في بطنه، وقال له: «استوِ يا سواد» فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال: «استقد» فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد» قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله بخير. انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٣٦ .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه فكان يقول : يا ليتني كنت شجرةً تعضدُ ثم تؤكل !! وكان له خادمٌ يأتيه بالطعام ، وكان من عادةِ الصديق أن يسأله في كل مرة عن مصدرِ الطعام ؛ تحرزاً من الحرام !! فجاءه خادمُه مرةً بطعامه ، فنسي أن يسألَه كعادته فلما أكلَ منه لقمة قال له خادمُه : لمَ لم تسألني – يا خليفةَ رسولِ الله – كسؤالكِ في كلِ مرة ؟ قال أبو بكر : فمن أين الطعامُ يا غلام ؟ قال : دفعه إليَّ أناسٌ كنتُ أحسنتُ إليهم في الجاهلية بكهانةٍ صنعتُها لهم ، وهنا ارتعدتْ فرائصُ الصديق ، وأدخلَ يده في فمه ، وقاء كلَّ ما في بطنهِ وقال : واللهِ لو لم تخرجْ تلك اللقمة إلا مع نفسي لأخرجتها ، كل ذلك من شدةِ خوفه وتقواه وتورعهِ عن الحرام ، وأما خوفُ عمر رضي الله عنه وشدةِ تقواه فعجبٌ من العجب ، سمع قارئاً يقرأُ قولَه تعالى: { يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً } [الطور:١٣] فمرض ثلاثاً يعودهُ الناس . بل إنه قرأ مرةً قولَه تعالى : {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسئُولُونَ } [الصافات:٢٤] فمرض شهراً يعودُه الناسُ مريضاً ، وأما عليٌ رضي الله عنه فكان يقبض لحيته في ظلمة الليل ويقول : يا دنيا غُري غيري أليَّ تزينتِ أم إليَّ تشوقتِ طلقتك ثلاثاً لا رجعةَ فيهن زادُك قليل وعمرُك قصير ، وخرج ابن مسعود مرة في جماعة فقال لهم ألكم حاجة ؟! قالوا : لا ؛ ولكن حبُ المسيرِ معك !! قال : اذهبوا فإنه ذلٌ للتابع ، وفتنةٌ للمتبوع .

دعنا من الخلفاء الراشدين المكرمين ، ولنتجاوز الزمن سنين عدداً ، فهاهو هارون الرشيد الخليفةُ العباسيُ العظيم الذي أذلَّ القياصرة وكسرَ الأكاسرة والذي بلغت مملكته أقاصي البلاد شرقاً وغرباً يخرج يوما في موكبهِ وأبهته فيقول له يهودي:يا أمير المؤمنين : اتق الله !! فينزل هارونُ من مركبه ويسجدُ على الأرض للهِ ربِ العالمين في تواضعٍ وخشوع ، ثم يأمرُ باليهودي ويقضي له حاجته ، فلما قيل له في ذلك !! قال : لما سمعت مقولتَه تذكرتُ قولَه تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ } [البقرة:٢٠٦] فخشيت أن أكون ذلك الرجل ، وكم من الناس اليوم من إذا قيل له اتق الله احمرتْ عيناه ، وانتفختْ أوداجه ، غضباً وغروراً بشأنه ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : كفى بالمرء إثماً أن يقال له: اتق الله فيقول:عليك نفسَك !! مثلكُ ينصحنُي !!.

قال الحسن البصري (رحمة الله) : إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته .

روي أن الأحنف بن قيس كان جالساً يوما فجال بخاطره قوله تعالي :(لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم)فقال : علي بالمصحف لألتمس ذكري حتى اعلم من أنا ومن أشبة ؟ فمر بقوم : (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم . ومر بقوم : (ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ومر بقوم : (يؤثرون علي أنفسهم ولوكان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. ومر بقوم : (يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ... فقال تواضعاُ منه : اللهم لست أعرف نفسي في هؤلاء ثم أخذ يقرأ فمر بقوم : (إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون . ومر بقوم : يقال لهم (ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين فقال : اللهم إني أبرأ إليك من هؤلاء حتى وقع علي قوله تعالي : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وأخر سيئاً عسي الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم . فقال : اللهم أنا من هؤلاء .

إلى كم أقول ولا أفعلُ *** و كم ذا أحوم ولا أنزِلُ
وأزجر عيني فلا ترعوي *** وأنصح نفسي فلا تَقبلُ
و كم ذا تعلّل لي ، ويحَها *** بِعَلَّ وسوف وكم تمطل ؟
وكم ذا أُؤمل طول البقا *** وأغفل والموت لا يغفلُ ؟
و في كل يوم يُنادي بنا *** منادي الرحيل : ألا فارحلوا
كأن بي وشيكاً إلى مصرعي *** يُساق بنعشي ولا أُمهلُ

٣- النفقة الحلال واختيار الصحبة الصالحة :

من أعظم ما يجب على الحاج اتقاؤه الحرام، وأن يطيب نفقته في الحج وألا يجعلها من كسب حرام.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا خرج الحاجُّ حاجًّا بنفقةٍ طيبةٍ ووضع رجلَه في الغَرْزِ فنادى لبيك ناداه منادٍ من السماءِ لبيك وسعديك زادُك حلالٌ وراحلتُك حلالٌ وحجُّك مبرورٌ غيرُ مأزورٍ وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجلَه في الغرز فنادى لبيك ناداه مَلَكٌ من السماءِ لا لبيك ولا سعديك زادُك حرامٌ ونفقتُك حرام وحجُّك غيرُ مبرورٍ. (الطبرانى في الأوسط أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٥١/٥ ، رقم ٥٢٢٨) قال الهيثمى (٢٩٢/١٠) : فيه سليمان بن داود اليمامى ، وهو ضعيف . وأخرجه أيضًا : البزار كما في كشف الأستار (٦/٢ ، رقم ١٠٧٩) .

مات رجل في طريق مكة فحفروا له فدفنوه ونسوا الفأس في لحده فكشفوا عنه التراب ليأخذوا الفأس، فإذا رأسه وعنقه قد جمعا في حلقة الفأس، فردوا التراب عليه ورجعوا إلى أهله فسألوهم عنه فقالوا: صحب رجلاً فأخذ ماله فكان منه يحج ويغزو:

إذا حججت بمال أصله سحت * * * فما حججت ولكن حجّت العيرُ

لا يقبل الله إلا كل طيبة * * * ما كل مَنْ حجّ بيت الله مبرورُ

والرفيق الصالح في السفر يكون نعم المعين على طاعة الله تعالى ، فمعادن الناس الحقيقية قد لا تظهر إلا في السفر ، وفي سنن البيهقي لما شهد الشاهد عند عمر قال له عمر : إني لا أعرفك، فاذهب وائتني بمن يزكيك.فجاءه برجل فقال عمر للرجل: أتعرفه؟ قال: أعرفه بالعدالة والأمانة.قال: أهو جارك الذي تعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا.

قال: أعاملته بالدينار والدرهم الذي يعرف به صدق الرجل من كذبه؟ قال: لا.

قال: أسافرت معه؟ قال: لا.قال: لا تعرفه.ثم قال للرجل: اذهب وائتني بمن يعرفك. شرح زاد المستقنع: محمد بن محمد المختار الشنقيطي ، ٢/٦٥ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم » مَثَلُ الجليس الصَّالِح و الجَلِيس السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ، وَكِيرِ الْحَدَّادِ، لاَ يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً « . متفق عليه، وقد قال ابن الجوزي: رفيق التقوى رفيق صادق، ورفيق المعاصي غادر. قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم " المرء على دين خليله فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يخالل" خرجه أحمد ٢/٣٠٣(٨٠١٥) و"أبو داود" ٤٨٣٣ و"التِّرمذي" ٢٣٧٨ .

قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل و سَلَ عن قرينه * * * فكل قرين بالُمقارن يقتدي

إذا كنت في قوم فصاحب خيَارَهم * * * ولا تصحب الأَردى فتردى مع الردى

فالصحبة الصالحة لها أثرها البالغ في ثبوت الإيمان في القلوب.

قال علقمة – رحمه الله – :اصحب مَن إن صحبته زانك ، وإن أصابتك خصاصة عانك ، وإن قلت سدَّد مقالك ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن بدت منك ثملةٌ سدّها ، وإن سألته أعطاك ، وإذا نزلت بك مهمّةٌ واساك ، وأدناهم من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق .

وعن أبي جعفر محمد بن علي قال: أوصاني أبي قال: لا تصحبن خمسة ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق. قال: قلت: جعلت فداءك يا أبت من هؤلاء الخمسة؟ قال: لا تصحبن فاسقاً فإنه يبيعك بأكلةٍ فما دونها. قال: قلت: يا أبة وما دونها؟ يطمع فيها ثم لا ينالها.قال: قلت: يا أبة ومن الثاني؟ قال: قال: لا تصحبن البخيل فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه.قال: قلت: يا أبة ومن الثالث؟ قال: لا تصحبن كذاباً فإنه بمنزلة السراب يبعد منك القريب ويقرب منك البعيد.قال: قلت: يا أبة ومن الرابع؟ قال: لا

تصحبن أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.قال: قلت: يا أبة ومن الخامس؟ قال: لا تصحبن قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواضع.

وقال مجاهد: صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه فكان يخدمني.كان عبد الله بن المبارك يطعم أصحابه في الأسفار أطيب الطعام وهو صائم وكان إذا أراد الحج من بلده جمع أصحابه وقال : من يريد منكم الحج ؟ فيأخذ منهم نفقاتهم فيضعها في صندوق ويغلقه ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ويطعمهم أطيب الطعام ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من هدايا ثم يرجع بهم إلى بلده فإذا وصلوا صنع لهم طعاما ثم جمعهم عليه ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فردَّ إلى كل واحد نفقته!! .

وكان كثير من الصالحين يشترط على أصحابه أن يخدمهم في السفر. وصحب رجل قومًا في الجهاد فاشترط عليهم أن يخدمهم، وكان إذا أراد أحد منهم أن يغسل رأسه أو ثوبه قال: هذا من شرطي فيفعله، فمات فجردوه للغسل فرأوا على يده مكتوبًا: من أهل الجنة، فنظروا فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم.ولقد قيل : الرفيق قبل الطريق ، و " الصاحب ساحب " ، و " الطبع يسرق من الطبع " ، فمن جالس أهل الغفلة والجرأة على المعاصي سرى إلى نفسه هذا الداء : { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً } [الفرقان / ٢٧ – ٢٩] .

كانَ لأبنِ أبي معيط صديقٌ كافرٌ غائبٌ في الشام وقد ظنت قريش أن عقبةَ قد أسلم لما يعامل النبي (صلى الله عليه وسلم) من معاملة حسنة.فلم قدِمَ خليله من الشام قالت قريش هاهو خليلك ابنَ أبي معيطٍ قد أسلم.فغضب خليله وقرينه غضبا شديداً وأبى يكلِمَ عقبةَ وأبى أن يسلمَ عليه حتى يؤذي النبي (صلى الله عليه وسلم)، فاستجاب عقبةَ له، وأذى النبي (صلى الله عليه وسلم)، حتى أنه خنقه بتلابيبه ذات مرة، وحتى أنه بصق في وجهه الشريف مرة أخرى فأستأثرَ بكلِ حقارةٍ ولؤم على وجه الأرض في تلك الساعة.فنزلت فيه وفي أمثاله الآيات السابقة .

قال مخول جاءني بهيم يوما فقال لي : تعلم لي رجلا من جيرانك أو إخوانك يريد الحج ترضاه يرافقني ! قلت : نعم ،فذهبت إلى رجل من الحي له صلاح ودين ، فجمعت بينهما ، وتواطآ على المرافقة ، ثم انطلق بهيم إلى أهله فلما كان بعد أتاني الرجل فقال : يا هذا ! أحب أن تزوي عني صاحبك وتطلب رفيقا غيري .فقلت : ويحك ، فلم ؟! فوالله ما أعلم في الكوفة نظيرا له في حسن الخلق والاحتمال ، ولقد ركبت معه البحر فلم أر إلا خيرا .قال : ويحك ! حدثت أنه طويل البكاء لا يكاد يفتر ، فهذا ينغص علينا العيش سفرنا كله .قال : ويحك ! حدثت أنه طويل البكاء أحيانا عند التذكرة ، يرق القلب فيبكي الرجل ، أوما تبكي أحيانا ؟ قال بلى ، ولكنه قد بلغني عنه أمر عظيم جدا من كثرة بكائه ، قال : قلت : اصحبه فلعلك أن تنتفع به.قال : أستخير الله فلما كان اليوم الذي أراد أن يخرج فيه ، جيء بالإبل وطيء لهما فجلس بهيم في ظل حائط ، فوضع يده تحت لحيته ، وجعلت دموعه تسيل على خديه ، ثم على لحيته ، ثم على صدره ، حتى والله رأيت دموعه على الأرض .قال : فقال لي صاحبي : يا مخول قد ابتدأ صاحبك ، ليس هذا لي

برفيق ، قال : قلت : ارفق لعله ذكر عياله ومفارقته إياهم فرق .وسمعها بهيم فقال : والله يا أخي ما هو ذاك ، وما هو إلا أني ذكرت بها الرحلة إلى الآخرة ، قال : وعلا صوته بالنحيب . قال لي صاحبي : والله ما هي بأول عداواتك لي أو بغضك إياي ، أنا مالي ولبهيم ؟! إنما كان ينبغي أن ترافق بين بهيم وبين ذوآذ بن علبة ، وداود الطائي ، وسلام أبي الأحوص ، حتى يبكي بعضهم إلى بعض ، حتى يشتفوا أو يموتوا جميعا .قال : فلم أزل أرفق به وقلت : ويحك ! لعلها خير سفرة سافرتها .قال : وكان رجلا صالحا ، إلا أنه كان رجلا تاجرا موسرا ، مقبلا على شأنه ، لم يكن صاحب حزن ولا بكاء .قال : فقال لي : قد وقعت مرتي هذه ، ولعلها تكون خيرا .قال : فخرجنا جميعا ، حتى حجا ورجعا ، ما يرى كل واحد منهما أن له أخا غير صاحبه ، فلما جئت أسلم على جاري قال : جزاك الله يا أخي عني خيرا ، ما ظننت أن في هذا الخلق مثل أبي بكر ، كان والله يتفضل علي في النفقة ، وهو معدم وأنا موسر ، ويتفضل علي في الخدمة وأنا شاب قوي وهو شيخ ضعيف ، ويطبخ لي وأنا مفطر وهو صائم .قال : قلت : فكيف كان أمرك معه في الذي كنت تكرهه من طول بكائه ؟قال : ألفت والله ذلك البكاء ، وسر قلبي حتى كنت أساعده عليه ، حتى تأذى بنا أهل الرفقة .قال : ثم والله ألفوا ذلك ، فجعلوا إذا سمعونا نبكي بكوا ، وجعل بعضهم يقول لبعض ، ماالذي جعلهم أولى بالبكاء منا والمصير واحد ؟قال : فجعلوا والله يبكون ونبكي .قال : ثم خرجت من عنده ، فأتيت بهيما ، فسلمت عليه ، فقلت كيف رأيت صاحبك ؟ قال : كخير صاحب ، كثير الذكر ، طويل التلاوة للقرآن ، سريع الدمعة ، محتملا لهفوات الرفيق ، فجزاك الله خيرا .

يقول عبد الواحد المقدسي: ركبنا البحر فألقتنا السفينة إلى جزيرة فرأينا رجلا يعبد وثنا، قلنا له: ما تعبد؟ فأشار إلى الوثن، قال: وأنتم ما تعبدون؟ قلنا نعبد الله، قال: ومن الله؟ قلنا: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي الناس قضاؤه، قال: وما أعلمكم به ؟ قلنا: رسول الله من عند الملك، قال: فأين الرسول ؟ قلنا: مات، قال: فهل ترك من علامة ؟ قلنا: كتاب من عند الملك، قال: ينبغي أن تكون كتب الملوك حسانا، أئتوني به، فجئناه بالقرآن الكريم فقرأنا عليه فبكى ثم قال: ما يصنع من أراد الدخول في دينكم؟، قلنا: يغتسل ويتوضأ ويقول كلمة التوحيد ويصلي. فاغتسل وقال كلمة التوحيد وصلى فلما جن علينا الليل أخذنا مضاجعنا، قال: أسألكم الإله الذي دللتموني عليه إذا جنه الليل ينام؟، قلنا: لا بل هو حي قيوم لا ينام، قال: بئس العبيد أنتم تنامون وربكم لا ينام. قال الشاعر :

إليك إلهي قد أتيت ملبيا * فبارك إلهي حجتي ودعائيا**
قصدتك مضطرا وجئتك باكيا * وحاشاك ربي أن ترد بكائيا**
كفاني فخرا أنني لك عابد * فيا فرحي إن صرت عبدا مواليا**
أتيت بلا زاد وجودك مطمعي * وما خاب من يهفو لجودك ساعيا**
إليك إلهي قد حضرت مؤملا * خلاص فؤادي من ذنوبي ملبيا**

الدرس الثالث

رحلة التشويق إلي البيت العتيق

أيها المشتاقون إلى الحج : لكم تنتظركم أجور عظيمة ، وآلاء جسيمة ، ولا شك أن تلك الأجور تهفو لها الأفئدة ، المؤمنة وتتمناها النفوس السليمة .

فرحلة الحج مباركة حينما تُغذى بالإخلاص ، وتُزود بالتقوى وتُلبس باليقين ، وتكون النية الصالحة الصادقة مطيتها .

إنها رحلة انسلاخ من الدنيا والمعصية ، إنها رحلة لم الشمل واللقاء بالأحباب الذين أتوا من المشارق والمغارب ، إنها رحلة الجهاد والتشمير ، إنها رحلة الأجور العظيمة ، إنها رحلة المؤمنين فيالها من رحلة ؛ فلماذا لا نرحل فهي زاد للرحيل الأخير . جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أن الله تعالى يقول : ﴿ إن عبداً صححت له جسمه ، ووسعت عليه في المعيشة ، تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إليّ لمحروم ﴾ .صحيح ابن حبان ١٦/٩ . صححه الألباني في السلسلة (٢٢١/٤ ـ ٢٢٤ ؛ رقم ١٦٦٢) .

قال الشاعر :

يحنّ إلى أرض الحجاز فؤادي * * * ويجدو اشتياقي نحو مكة حادي
ولي أملٌ مازال يسمو بهمّتي * * * إلى البلدة الغراء خير بلاد
بها كعبة الله التي طاف * * * حولها عبادهُم الله خير عباد

أيها المشتاقون إلى البيت العتيق إنها الرحلة التي اشتاق إليها الأنبياء ، وحن إليها الأصفياء ، وعمل لها الخلصاء .

فها هو الخليل إبراهيم عليه السلام يضع زوجه هاجر وولدها إسماعيل عند البيت الحرام ، ويدعو الله تعالى أن يجعل عذا البيت محط الأنظار ، ومأوى القلوب والأفئدة ، قال تعالى : " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) سورة إبراهيم ، وها هو الخليل إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت ، ويدعوان الله أن يتقبل منهما ذلك . " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) سورة البقرة ، يؤذن في الناس

بالحج ، قال تعالى : " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)سورة الحج .

وها هو كليم الله موسى عليه السلام يشتاق إلى هذا المكان فيأتي إليه ويحرم ، ثم يرفع صوته بالتلبية ،عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بِوَادِي الأَزْرَقِ فقال : " أيُّ وَادٍ هَذَا ؟ " فقالوا : هَذَا وَادِي الأَزْرَقِ، قال : " كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام هَابِطًا مِنْ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ " ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى فقال : " أيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ ؟ " قالوا : ثَنِيَّةُ هَرْشَى ، قال : " كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَام عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ وَهُوَ يُلَبِّي " ٠ (رواه مسلم) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صَلَّى في مَسْجِدِ الْخَيْفِ سَبْعُونَ نَبِيًّا منهم موسى، كأني أنظر إليه وعليه عَبَاءَتَانِ قَطَوَانِيَّتَانِ وهو مُحْرِمٌ، على بَعِيرٍ من إبل شَنُوءَةَ، مَخْطُومٍ بِخِطَامِ لِيفٍ، له ضَفِيرَتَان " ٠ (رواه الطبراني) صحيح الترغيب رقم : ١١٢٧ ٠

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت تَلْبِيَةُ موسى: لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدَيْكَ، وكانت تَلْبِيَةُ عيسى صلى الله عليه وسلم: لَبَّيْكَ عَبْدُكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، وكانت تَلْبِيَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ٠ إسناده حسن ، أنظر : مختصر البزار رقم : ١ / ٤٤٦ ٠

وها هو عيسى روح الله وكلمته عليه السلام يَطُوفُ بالبَيْتِ العَتِيقِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " أَرَانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فَرَأَيْتُ رَجُلاً آدَمَ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ، لَهُ لِمَّةٌ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ مِنْ اللِّمَمِ قَدْ رَجَّلَهَا تَقْطُرُ مَاءً، مُتَّكِئًا عَلَى رَجُلَيْنِ أَوْ عَلَى عَوَاتِقِ رَجُلَيْنِ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَسَأَلْتُ مَنْ هَذَا ، فَقِيلَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ إِذَا أَنَا بِرَجُلٍ جَعْدٍ قَطَطٍ أَعْوَرِ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ، فَسَأَلْتُ مَنْ هَذَا ، فَقِيلَ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ"٠ (رواه البخاري) .

فلماذا نشتاق إلى تلك البقعة المباركة ؟ لأنها خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ،عَنْ عَبْدَ اللَّهِ بن عَدِيِّ بْنِ الْحَمْرَاءِ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ يَقُولُ: " وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ لولا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ" ٠ (رواه ابن ماجه) صحيح سنن ابن ماجه رقم: ٢٥٢٣ ٠

ولأنها أَحَبُّ البلادِ إلىَ الله تَعَالى ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا " ٠ (رواه مسلم) .

قال العلماء : " أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا " : لأنَّها بيوت الطَّاعات وأساسها على التقوى، وخير المساجد وأحبها إلى الله تعالى: المسجد الحرام٠ " وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " : لأنها محل الغش

والخداع والربا والأيمان الكاذبة وإخلاف الوعد والإعراض عن ذكر الله وغير ذلك مما يجلب غضب الله تعالى وسخطه ٠

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (٨٥ ـ القصص)،عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ قَالَ: إِلَى مَكَّةَ ٠ (رواه البخاري) .

وقال مُقَاتِل : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الغار ليلا مُهاجرا إلى المدينة في غير طَرِيق مَخَافَةَ الطلب، فلما رجع إلى الطريق ونزل الْجُحْفَةِ عرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها، فقال له جبريل إن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أي إلى مكة ظاهرا عليها ٠

قال العلماء: نَكَّر الله تعالى لفظة ﴿ مَعَادٍ ﴾ تَنْكِيرُ تَعْظِيمٍ، فهو مَعَادٌ له شأن عظيم، لاستيلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَكَّة وقهره لأهلها، وإظهار عِزَّ الإسلام وأهله وذُلَّ الكفر وأهله٠

لأن الحاج يعلم أنه زائر الله ، حَقٌ عَلَىَ المَزُورِ أنْ يُكْرِمَ اَلْزَائِر، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ تَوضَأ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى المَسْجِدَ فَهُوَ زَائِرُ الله ، وحَقٌ عَلَى المَزُورِ أنْ يُكْرِمَ الزَّائِر " ٠ (رواه الطبراني) صحيح الترغيب والترهيب رقم : ٣٢٢ ٠قال العلماء : المساجد بيوت الله تعالى في الأرض ، وأجَلُّ المساجد وأشرف البيوت هو : المسجد الحرام ، وحِكْمَةُ الحَجِّ كامنة في أنه سَفَرٌ إلى المسجد الحرام ، سَفَرٌ إلى بيت الله الحرام ، وحَقٌ على الله تعالى أكرم الأكرمين أن يُكرم زائريه ٠

قال وهيب بن الورد : « بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهى تقول : يا رب ذهبت اللذات وبقيت التبعات يا رب سبحانك وعزتك إنك لأرحم الراحمين يا رب ما لك عقوبة إلا النار ، فقالت صاحبة لها كانت معها : يا أخية دخلت بيت ربك اليوم قالت : والله ما أرى هاتين القدمين وأشارت إلى قدميها أهلا للطواف حول بيت ربي فكيف أراهما أهلا أطأ بهما بيت ربي ؟ وقد علمت حيث مشتا وإلى أين مشتا ؟ » ابن أبي الدنيا : محاسبة النفس ٤٣ .

قال إبراهيم بن مسلم المخزومي: وقفت امرأة متعبدة في جوف الليل فتعلقت بأستار الكعبة؛ ثم بكت وقالت: يا كريم الصحبة، ويا حسن المعونة، أتيتك من شقة بعيدة، متعرضةً لمعروفك الذي وسع خلقك، فأنلني من معروفك معروفاً تغنيني به عن معروف من سواك؛ يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة. (صفة الصفوة ٥٢٩/٢) .

الدرس الرابع

ثلاث رسائل ما بعد الحج

١-شكر الله تعالي على نعمة التوفيق:

يا من وفقك الله إلى الحج ، حينما تعود من حجك أكثر من الشكر لله تعالى على ما أعطاك وأولاك ، فقد وفقك الله تعالى واختارك من بين ملايين البشر واستضافك عنده في أشرف الأماكن وأطهر البقاع ، أكثر من الشكر لله تعالى على أن هيأ لك الزاد الحلال والرفقة الصالحة والطريق الآمن ، أكثر من الشكر لله تعالى على أن وفقك لأداء مناسك الحج والعمرة على هدي من الإسلام ، أكثر من الشكر لله تعالى على عودتك لأهلك ومن تحب سليما معافى ، مغفورا مأجورا ، أكثر من الشكر لله تعالى على عودتك من حجك كيوم ولدتك أمك صفحة نقية تقية بيضاء ، فيا من حج بيت الله الحرام ، اشكر الله على ما أولاك ، واحمده على ما حباك وأعطاك ، تتابع عليك برُّه ، واتصل خيرُه ، وعمَّ عطاؤه ، وكمُلت فواضله ، وتمت نوافله (وَمَا بِكُم مّن نّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) سورة النحل ، " وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) سورة إبراهيم ، فظُن بربك كلَ جميل ، وأمِّل كلَ خيرٍ جزيل ، وقوّي رجاءك بالله في قبولِ حجك ، ومحْوِ ما سلف من ذنوبك ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِى.أخرجه أحمد /٤٤٥(٩٧٤٨) و"البُخاري" في الأدب المفرد (٦١١١) و"مسلم" ٦٦/٨ و"الترمذي" ٢٣٨٨ .

قال علي بن الموفق : لما تم لي ستون حجة خرجت من الطواف وجلست بحذاء الميزاب وجعلت أفكر لا أدري أي شيء حالي عند الله عز وجل وقد كثر تورددي إلى هذا المكان ؟ فغلبتني عيني فكأن قائلا يقول لي : يا علي أتدعو إلى بيتك إلا من تحبه ؟ قال : فانتبهت وقد سرى عني ما كنت فيه . التبصرة ، لابن الجوزي ٢٨٢/٢ ،ولله در القائل:

أبشر فحجك مقبول ومبرور * * * وكل سعيك محمود ومشكور

وما تصدقت في أرض الحجاز * * * فأجره لك عند الله مكفول

وكل سعي وما قدمت من عمل * * * فإنه لك بعد الربح موفور

فإن حججت ولم تأت بمعصية * * * نلت المراد وأنت اليوم مسرور

وقال آخر:

هب البعث لم تأتنا رسله * * * وجاحمة النار لم تضرم

أليس من الواجب المستحق * * * حياء العباد من المنعم

كان وهيب بن الورد – رحمه الله – يسأل عن ثواب شيء من الأعمال كالطواف ونحوه ، فيقول : تسألوا عن ثوابه ! ولكن سلوا ما الذي على من وفّق لهذا العمل من الشكر ، للتوفيق والإعانة عليه ؟! .

إذا أنت لم تزدد على كل نعمة * * * لمؤتيكها شكراً فلست بشاكر

إذا أنت لم تؤثر رضا الله وحده * * * على كل ما تهوى فلست بصابر

قال تعالى : " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)سورة إبراهيم .

قال ابن رجب – رحمه الله – في قوله تعالى : " اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) سورة سبأ ، قال بعض السلف : " لما قيل لهم هذا ، لم تأت عليهم ساعة إلا وفيهم مصلّ " ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تتورم قدماه وقال : " أفلا أكون عبداً شكوراً ". وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه بهذا الدعاء العظيم فقال له وقد أخذ بيده : يا معاذ ، والله إني لأحبك، ثم أوصيك يا معاذ لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. رواه أبو داود رقم (١٥٢٢) والنسائي (٣/ ٥٣) بإسناد صحيح.

وكان بعض السلف إذا وفق لقيام ليلة من الليالي أصبح في نهارها صائماً ، ويجعل صيامه شكراً لله للتوفيق للقيام ، يقول محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة * * * علي له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله * * * وإن طالت الأيام واتصل العمر

إذا مس بالسراء عم سرورها * * * وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

فما منهما إلا له فيه نعمة تضيق * * * بها الأوهام والسر والجهر

٢-علامات قبول الحج :

إن للطاعات علامات تظهر على صاحبها ، والمؤمن هو الذي يسأل الله تعالى قبولها، ويعلم أن توفيق الله تعالى إياه لهذه العبادة نعمة يستحق سبحانه وتعالى الشكر عليها، فإذا شكر الله وسأل الله القبول فإنه حريٌّ بأن يقبل، لأن الإنسان إذا وُفِّق للدعاء فهو حريٌّ بالإجابة، وإذا وفق للعبادة فهو حري بالقبول.

إن للحج المبرور أمارة ، ولقبوله منارة ، فليكن حجُك حاجزًا لك عن مواقعِ الهلكة ، ومانعًا لك من المزالق المُتلفة ، وباعثًا لك إلى المزيد من الخيرات وفعلِ الصالحات ، واعلم أن المؤمن ليس له منتهى من صالحِ العمل إلا حلولُ الأجل ، فما أجملَ أن تعود بعد الحج إلى أهلك ووطنك بالخُلُق الأكمل ، والعقلِ الأرزن ، والوقارِ الأرْصَن ، والعِرض الأصون ، والشِيَمِ المرْضية ، والسجايا الكريمة ، ما أجملَ أن تعود حَسَنَ المعاملة لقِعادك ، كريمَ المعاشرةِ لأولادك ، طاهرَ الفؤاد ، ناهجًا منهج الحق والعدل والسداد ، المُضْمَرُ منه خيرٌ من المظهر ، والخافي أجملُ من البادي ، فإن من يعودُ بعد الحج بهذه الصفات الجميلة والسمات الجليلة فهو حقًا من استفاد من الحجِ وأسراره ودروسه وآثاره .

فيا من حج البيت الكريم : لقد فتحت في حياتك صفحةً بيضاء نقية ، ولبست بعد حجك ثيابًا طاهرة نقية ، فحذار حذار من العودةِ إلى الأفعال المخزية ، والمسالكِ المردية ، والأعمال الشائنة ، فما أحسن الحسنةِ تتبعها الحسنة ، وما أقبح السيئةِ بعد الحسنة ، وإن من قبول العمل الصالح إتباعه بعمل صالح .

ولقد ذكر العلماء علامات كثيرة لقبول الحج منها :

١- انشراح الصدر، وسرور القلب، ونور الوجه: قال تعالى : " قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) سورة يونس ،قال ابن عباس رضي الله عنه : " "إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لسوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق" . ابن تيمية، منهاج السُّنة ١/ ٢٦٩. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وفي الحديث الموقوف عن جابر قال: "من كَثُرَتْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" . سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٣).

ورُوِيَ عنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ أَنَّهُ قال: (مَنْ أَصْلَحَ سريرتَه أصلحَ اللهُ تعالى علانيتَه).

٢- أن يكون بعد رجوعه خيرا مما كان قبل ذهابه : قال الإمام النّوويّ : ينبغي أن يكون بعد رجوعه خيرا ممّا كان ، فهذا من علامات قبول الحجّ ، وأن يكون خيره آخذا في ازدياد . قال تعالى : " وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ [الحج:١٨]، وقال جل وعز: " وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ " [النور:٤٠]. فيا من تقلبتَ في أنواع العبادة ، الزم طريقَ الاستقامة ، وداوم العمل فلستَ بدار إقامة ، واحذر الإِدْلاَءَ والرياء فربّ عملٍ صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية ، يقول بعض السلف : من سره أن يكْمُلَ له عمله فليُحسن نيته ، وكن على خوف ووجل من عدمِ قبول العمل ، فعن عائشة رضي الله عنها زوجُ النبي قالت: سألت رسول الله عن هذه الآية { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ فقال " لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا تُقبل منهم { أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [أخرجه الترمذي] . قال الشاعر :

أسألُ النفس خاشعًا: أترى * طهرت بردي من لوثة الأدران**

كم صلاةٍ صليتُ لم يتجاوز * قدس آياتها حدودَ لساني**

كم صيام عانيتُ جوعي فيه * ونسيت الجياع من إخواني**

كم رجمت الشيطان والقلب مني * مرهَقٌ في حبائل الشيطان**

ربِّ، عفوًا، إن عشت ديني * ألفاظًا عجافًا، ولم أعشه معاني**

قال ابن المبارك رحمه الله :

رأيت الذنوب تميت القلوب * * * وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب * * * وخير لنفسك عصيانها

٣- المداومة على الطاعات : قال تعالى : " لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)سورة البقرة .

فعلى الحاج بعد رجوعه أن يحافظ على العبادات، وأن يسابق إلى المساجد، وأن يتقرب إلى الله تعالى بنوافل العبادات؛ وأن يفعل الرواتب التي قبل الفرائض وبعدها، ويكثر من ذكر الله، يأتى بالأذكار التى بعد الصلوات تسبيحا وتكبيرا وتحميدا ، وما إلى ذلك.

فإن ذلك مما يبيض وجهه عند الله وعند الناس ، ذكر بعض السلف أن من علامة قبول الحسنة أن يوفق الإنسان لحسنة بعدها، فإن توفيق الله إياه لحسنة بعدها يدل على أن الله عز وجل قبل عمله الأول، ومنَّ عليه بعمل آخر، ورضي به عنه.

قال قتادة : وذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول : من اتقى في حجه غفر له ما تقدم من ذنبه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح قال : كانت امرأة من المهاجرات تحج فإذا رجعت مرت على عمر فيقول لها : أتقيت ؟ فتقول : نعم ، فيقول لها : استأنفي العمل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه قال : قد غفر له أنهم يتأولونها على غير تأويلها إن العمرة لتكفر ما معها من الذنروب فكيف بالحج ؟ ! .

وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن معاوية بن مرة المزني فلا إثم عليه قال : خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال : إنما جعل الله هذه المناسك ليكفر بها خطايا بني آدم .

عن حبيب بن أبي ثابت قال : كنا نلتقي الحجاج فنصافحهم قبل أن يقارفوا .

وأن لا يزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ، فهناك يزول خوفه .

٤- الزهد في الدنيا : أخرج الأصبهاني عن الحسن ، أنه قيل له ما الحج المبرور ؟ قال : أن يرجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة . السيوطي : الدر المنثور ٥٦٨/١.

قال الشاعر :

لا تَنْظُرَنَّ إلى القُصُورِ العَامِرَةِ * واذْكُرْ عِظَامَكَ حِينَ تُمْسِي نَاخِرَة**

وإذا ذَكَرْتَ زَخَارِفَ الدُّنيا فَقُلْ * لَبَيْكَ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَة**

وليس الزهد في الدنيا الانقطاع للعبادة وفقط بعد عودته من الحج ، بل الزهد بمعناه الحقيقي ، أن يكون أوثق بما في يد الله خير مما في يده ، وأن يحسن التوكل والاعتماد على الله تعالى في كل ما يأخذ وفي

كل ما يدع ، وأن يجعل الآخرة ومرضاة الله تعالى همه وشغله ،وأن يبدأ رحلة جهاد جديدة و ربما تفوق في ثوابها جهاد الحج ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه كان في المُرَابَطَةِ فَفَرَغُوا فَخَرَجُوا إلى السَّاحِلِ ، ثُمَّ قِيلَ لاَ بَأسَ ، فَانْصَرَفَ النَّاسُ وأبُو هُرَيْرَةَ وَاقِفٌ ، فَمَرَّ بِهِ إنْسَانٌ فَقَالَ مَا يُوقِفُكَ يا أبَا هُرَيْرَةَ ؟! فقال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَى الله عَلَيْهِ وَسَلَمَ يَقُولُ : " مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةَ القَدْرِ عِنْدَ الحَجَّرِ الأسْوَدِ " (رواه ابن حبان والبيهقي) السلسلة الصحيحة رقم : ١٠٦٨، وصحيح الترغيب رقم: ١٢٢٣ ٠

٥- المحافظة على أخلاقيات الحاج : الحاج في حجه يتدرب على أخلاقيات كثيرة ، ربما كان كثير منها قد غاب عنه في صراعات الحياة المختلفة ، فهو يتدرب هناك على أن يبدأ إخوانه بالسلام، وعلى أن يهش ويبش في وجوههم ، وعلى أن يتحمل ويصبر على الأذى منهم ، ورأيته يحرص على زيارات الصالحين، يتودد إليهم ويتقرب بذلك إلى الله تعالى، ويتقرب بمحبتهم، ورأيته أيضا يحب مجالس الذكر، ومجالس العلم: العلم النافع، ويتزود من المعلومات التي تقربه عند الله سبحانه تعالى.

وكذلك أيضا يتقرب إلى الله تعالى بما يتعلق بحقوق إخوته؛ فيسلم على من لقيه ، ويشمت من عطس، ويزور المرضى، ويتبع الجنائز، ويصلي على إخوته إذا مات أحد منهم من المسلمين ولم يكن يعلمهم.

ويبذل النصيحة للعالم، يبذل النصيحة لإخوانه المسلمين.

وكذلك أيضا يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويبر أبويه، ويصل ذوي أرحامه ، ويحسن إلى جيرانه، وما أشبه ذلك من الأعمال الصالحة.

فإذا رأيت من أخلص في حجه بعد رجوعه، رأيته يغض بصره عن الحرام، ولا ينظر إلى ما يفتنه من الصور الفاتنة أو النساء المتبرجات، أو من الأفلام الخليعة أو ما أشبه ذلك، يحفظ بصره عما يفسد عليه قلبه؛ وذلك لأن البصر مرآة القلب.

كذلك أيضا يحفظ سمعه؛ فلا يستمع إلى الكلام السيئ، ولا يستمع الغيبة والنميمة والسباب والهجاء وما أشبه ذلك، يصون سمعه؛ فيبتعد عن هؤلاء ونحوهم الذين يتعاطون مثل هذه الأعمال السيئة.

ورأيته يراحي حرمات المسلمين ، لأنه قد رأى حرمة الكعبة المشرفة ، ولكنه عرف أن حرمة المسلم ؛ دمه وماله وعرضه أعظم وأشد عند الله من حرمتها ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لمَا نَظَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قال : " مَرْحَباً بِكَ مِنْ بَيْتٍ ، ما أعْظَمَكَ ، وأعْظَمَ حُرْمَتَكَ ، وَلَلْمُؤْمِنُ أعْظَمُ حُرْمَةً عند الله مِنْكِ ، إنَّ الله حَرَّمَ مِنْكِ وَاحِدَةً ، وحَرَّمَ مِنَ المؤمِنِ ثَلاَثاً : دَمُهُ ، ومَالُهُ ، وأن يُظَنَّ به ظَنَّ السَّوء " ٠ (رواه البيهقي) السلسلة الصحيحة رقم : ٣٤٢٠ ٠

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : " ما أطْيَبَكَ وأطْيَبَ رِيحَكِ ، ما أعْظَمَكِ وأعْظَمَ حُرْمَتَكِ ، والذي نَفْسُ مُحَمَدٍ بيده لَحُرْمَةُ المؤمن أعْظَمُ عِنْدَ الله حُرْمَةً مِنْكِ ، مَالُهُ ، ودَمُهُ ، وأنْ نَظُنَّ به إلا خَيْراً " (رواه ابن ماجه) صحيح الترغيب رقم : ٢٤٤١ ٠

قال العلماء : حُرْمَةَ الكعبة المُشرفة إنَّما هي للمؤمن ، فلا حُرْمة أعظم من حُرْمة المؤمن ٠

فيا حجَّاج البيت العتيق، لقد فتَحتم في حياتِكم صفحةً بيضاء نقيّة، ولبستم بعد حجّكم ثيابًا طاهرة نقيّة، فحذارِ حذار من العودة إلى الأفعال المخزِية والمسالك المردِية والأعمال الشائنة، فما أحسنَ الحسنة تتبعُها الحسنة، وما أقبحَ السيئة بعدَ الحسنة.

ويا من حج البيت العتيق ، وجئت من كلِ فج عميق ، ولبيت من كل طرفٍ سحيق ، ها أنت وقد كَمُلَ حجك وتمَّ تفثُك بعد أن وقفت على هاتيك المشاعر ، وأديت تلك الشعائر ، ها أنت تتهيأ للرجوع إلى ديارك احذر كل الحذر من العودة إلى التلوثِ بالمحرمات ، والتلفُّع بالمعَرَّات ، والْتِحافِ المسبَّات قال تعالى : " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) سورة النحل . فإياك إياك أن تهدم ما بنيت ، وتُبدد ما جمعت ، وتنقض ما أحكمتم .

٣-إنما الأعمال بالخواتيم :

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ نَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلى رَجُلٍ يُقَاتِلُ المُشْرِكِينَ وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ المُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنْهُمْ فَقَالَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلى هَذَا فَتَبِعَهُ رَجُلٌ فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتى جُرِحَ فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ فَقَالَ بِذُبَابَةِ سَيْفِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ فَتَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا " البخاري ٣١٣/٧ . انظر حديث رقم : ١٦٢٤ في صحيح الجامع .عن خيثمة بن عبد الرحمن قال : إذا قضيت حجك فسل الله الجنة فلعله.

و قد قص الله تعالى في كتابه العزيز قصة بلعام و إنه سلب الإيمان بعد العلم و المعرفة و كذلك برصيصا العابد مات على الكفر و روي أنه كان رجل بمصر ملتزم المسجد للآذان و الصلاة و عليه بهاء العبادة و أنوار الطاعة فرقي يوما المنارة على عادته للآذان و كان تحت المنارة دار لنصراني ذمي فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار ــ و كانت جميلة ــ فافتتن بها و ترك الآذان و نزل إليها فقالت له : ما شأنك و ما تريد ؟ فقال : أنت أريد قالت : لا أجيبك إلى ريبة قال لها أتزوجك قالت له : أنت مسلم و أبي لا يزوجني بك قال : أتنصر قالت له : إن فعلت أفعل فتنصر ليتزوجها و أقام معهم في الدار فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط فمات فلا هو فاز بدينه و لا هو تمتع بها. الكبائر ، للذهبي ٢٢٧.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة،فلقي آدم فيها ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي،ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم اللّه الأعظم،

فانظر ماذا لقي، ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر من المصطفى فلم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه.

الإستعداد للموت وسؤال القبر ، المليباري ٢٧ .

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ الْخُزَاعِيِّ ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ ، قِيلَ : وَمَا اسْتَعْمَلُهُ ؟ قَالَ : يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ ، حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ مَنْ حَوْلَهُ.

أخرجه أحمد ٥/٢٢٤(٢٢٢٩٥) .

فيا أيها الحاج كما أحسنت البدء أحسن الختام . كما بدأت طريق الطاعة فلا تنكس بعد حجك ولا ترتكس ، بل واصل السير فقد أوشكت أن تبلغ . وقال الفضيل لرجل: كم أتى عليك؟ قال: ستون سنة. قال له: أنتَ من ستين سنة تسير إلى ربك؛ يوشك أن تبلغ. فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال فضيل: مَن علم أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف وأنه مسئول، فليُعِد للمسألة جوابًا. فقال له الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة.. تُحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى؛ فإنك إنْ أسأتَ فيما بقي أُخذتَ بما مضى وما بقي. لطائف المعارف ص ١٠٨ .

قال الشاعر :

قَوْمٌ هُمُوهُم بِاللهِ قَدْ عَلِقَتْ * * * فَمَا لَهُم هِمَمٌ تَسْمُو إِلى أَحَدِ

فَمَطْلَبُ القَوم مَوْلاهُم وَسَيِّدهُم * * * يَا حُسْنَ مَطْلَبِهِم لِلواحِدِ الصَّمَدِ

مَا إِنْ تُنَازِعُهُم دُنْيَا وَلا شَرَفٌ * * * مِن المَطَامِعِ والذَّاتِ والوَلَدِ

ولا لِلْبسِ ثِيابٍ فَائِقٍ أَنِقٍ * * * وَلا لِرَوْمِ سُرُوْرٍ حَلَّ فِي بَلَدِ

إِلا مُسَارَعَةً فِي إِثْرِ مَنْزِلَةٍ * * * قَدْ قَارَبَ الخَطْو فيها بَاعِدِ الأَبَدِ

أيها الحاج لقد أتيحت لك فرصة جديدة بعد هذه الرحلة في الإعداد لرحلة أخرى إلى الآخرة التي تذكرك بالموت بكل ما فيه وبالمحشر حيث جمع الناس في هذا المكان الضيق في عرفات ورأيت أنواع البشرية وأجناسهم يجتمعون من كل فج عميق، وتذكرت أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه حشرهم جميعاً في الساهرة، إذ أرانا من قدرته أنه حشر هذه الخلائق التي لا حصر لها والتي يعجب الشخص إذا رآها كالسيول، الهادرة في هذه الأماكن الضيقة، فرأيت هذا العجب العجاب وتذكرت به النشأة الآخرة وأن الله سيناديهم فيخرجون من الأجداث سراعاً ويجتمعون جميعاً في الساهرة، حينما يناديهم المنادي أيها الناس هلموا إلى ربكم، فيخرجون سراعاً يلتقي أولهم مع آخرهم وينسون كم لبثوا في قبورهم فإذا اجتمعوا جميعاً في الساهرة بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام في كل زمام سبعون ألف ملك، فتحيط بالناس من كل جانب وتدنو الشمس حتى تصير كالميل على رؤوسهم، ويشتد العرق حتى يُلجم أقواماً ويصل إلى تراقي آخرين وإلى ثدي آخرين ودون ذلك، ويطول هذا الموقف حتى يكون كألف سنةٍ مما تعدون، ويبحث الناس فيه عن المخرج ولا يجدون المخرج إلاَّ إلى الأنبياء، ويختارون أولي العزم منهم فيمرون بهم مرورهم الذي أخبرنا به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ثم في الآخر تكون المنزلة والرفعة لرسولنا –صلى الله عليه وسلم– الذي هو الشافع المشفع وهذا هو المقام المحمود الذي ادخره الله له.

فتذكر ماذا ستكون عليه في ذلك اليوم الذي ينظر الشخص من أمامه فلا يرى إلا عمله، وينظر من خلفه فلا يرى إلاّ عمله، وينظر أيمن منه فلا يرى إلا عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلاّ عمله. وتذكر هذا الموقف العظيم الذي تعلن فيه النتائج وينادي الله سبحانه وتعالى آدم بصوت فيقول (أخرج بعث النار فيقول من كم فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فذلك يوم تذهل كل مرضعة عن ما أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .صحيح البخاري: ٣٣٤٨. ذلك الوقت الذي تعلن فيه النتائج على رؤوس الأشهاد، فينادى ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس:٥٩].

فيُفصل بين الناس فيه ويحال بينهم ويضرب فيه بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

تتذكر مرورك وعبورك على الصراط الذي هو جسرٌ منصوب على متن جهنم يمر الناس عليه وهو أحدُّ من السيف وأرقّ من الشعر وعليه كلاليب كشوك السعدان، يمر الناس عليه بحسب أعمالهم فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح المرسلة، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل والإبل، ومنهم من يمر كالرجل يشتد عدوا ومنهم من يزحف على مقعدته فناجٍ مُسَلَّمٌ ومخدوشٌ مرسل، ومكردسٌ في نار جهنم.

تتذكر عبورك على هذا الصراط وأنه جسر حقيقي وأنك اليوم تسير على جسر معنوي وهو المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وأنه بقدر ثباتك على هذا الصراط الدنيوي يكون ثباتك على الصراط الأخروي.

فاختر لنفسك وأنت ترى هذا بعني رأسك، ترى أنك الآن تسير على صراط أنت متحكمٌ فيه وأنت منه في سعة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨].

الدرس الخامس

خطبة الوداع دروس وعبر

قال صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : (الحمدُ لله نحمدُهُ وَنَستَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَتُوبُ إليه، ونَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أَنْفُسِنا ومِنْ سيّئآتِ أعْمَالِنَا مَن يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضَلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. أَمَّا بعد:

أَيُّها النَّاس، اسمعوا قولي،فَإنّي لاَ أَدْرِي، لعَلِيّ لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامي هَذَا، بهذا الموقف أبدا .

أيها الناس إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ » وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانةٌ فليؤُدِّها إلى مَنْ ائْتمَنَهُ عَلَيها، ،ألا و إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع و دماء الجاهلية موضوعة ، وإنَّ ربَا الجَاهِلِيّة مَوضوعٌ ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وإنّ أَوّلَ رباً أَبْدأُ بِهِ ربَا عَمّي العباسُ بن عبد المطلب وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أيها الناس فإن الشيطان قد أيس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

أَيُّها النَّاس، إِنَّمَا النَّسيءُ زِيادةٌ في الكُفرِ ، يضلُّ به الذينَ كَفَروا ، يُحِلُّونَهُ عاماً ، وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً ، لِيوَاطِئُوا عِدَّة مَا حَرَّمَ اللهُ فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مضر ، الذي بين جمادى وشعبان .

أَيُّها النَّاس، ، اتقوا الله في النساء ، فإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً. إلا إن لكم على نسَائِكُمْ حقاً و لِنسَائِكُمْ عليكم حقاً فأما حقكم على نسائكم؛ فلا يُوطِئنَ فُرُشَكُمْ غيركم ، وَلا يُدْخِلْنَ أحَداً تكرَهُونَهُ بيوتَكُمْ، ولا يأتينَ بِفَاحِشَة، فإنْ أَطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزقُهنَّ وكسوتُهُنَّ بالمَعْرُوفِ ، فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه.

أَيُّها النَّاس، اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة ، فَلاَ يَحِلُّ لامْـرِىءٍ مَالُ أَخيهِ إلاّ عَنْ طيبِ نفْسٍ منهُ، فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت ؟ و ستلقون ربكم فلا تَـرْجِعُنّ بَعْـدِي كُفاراً يَضربُ بَعْضُكُمْ رقابَ بَعْض.

أيها النّاسُ إن رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ ، كُلكُّمْ لآدمَ ، وآدمُ من تُراب، أَكرمُكُمْ عندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ولـيس لعربيّ فَضْلٌ على عجميّ إلاّ بالتّقْوى، أَلاَ هَلْ بلَّغْتُ، اللّهُمّ اشهد"

أَلَا لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ، وأخرج مسلم أنـه قال: ((وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟)) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقـال بإصـبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: ((اللهم اشهد)) ثلاث مرات.ولما فرغ من خطبته نزل عليه قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسْلاَمَ دِينـاً). المائدة : ٣ والحديث أخرجه البخاري برقم ٤٥، ومسلم برقم ٣٠١٦، ٣٠١٧.

ومن الدروس المستفادة من هذه الخطبة الجامعة المانعة :

١- حرمة الدماء والأموال والأعـراض : (أيها الناس إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ) :

فكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه.. ووجوب اظهار المحبة والأخـوة بـين المـؤمنين ، فالمحبة بين المؤمنين والتآلف والتآخي شأن عظيم وخطر جليل، فقد جعل الله عز وجـل الأخـوة سـمة المؤمنين في الدنيا والآخرة، والأخوة بين المؤمنين نعمة كبيرة ومنة عظيمة من الله تعالى ، وهذه الأخوة الحاصلة بين المؤمنين سببها الإيمان والعقيدة، فهي أخوة قائمة على (الحب في الله) الذي هو أوثق عرى الإيمان .

والنصوصُ الشرعية متكاثِرة في بيان حُرمة المسلم وعِصمة دمه ،فاللهُ جلّ وعلا يقول: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْوَةٌ) الحجرات:١٠. ويقول سبحانه: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) النساء:٩٣. وقال تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً) النساء:٩٢.

وقد ورد في سبب نزولها : أن أبا الدرداء رضي الله عنه كان في سرية ، فعمد إلى شعب لقضاء حاجتـه ، فوجد رجلاً من القوم في غنم له ، فحمل عليه بالسيف، فقال الرجل: لا إله إلا الله ، فضربه أبو الدرداء بالسيف فقتله ، ثم وجد في نفسه شيئًا ، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلكَ له، فقال : إنما قالهـا ليتقي بها القتل، فقال : (ألا شققتَ عن قلبه ، فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه ، فكيف بـلا إلـه إلا الله ؟! فكيف بلا إله إلا الله ؟!) قال أبو الدرداء : حتى تمنيت أن يكون ذلك مبتدأ إسلامي ، فنزل قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً) الدر المنثور (٦١٧/٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًـا حرامًـا) رواه البخاري كتاب الديات ، باب قول الله تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ) (٣٥٢/٤) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو أن أهل السماء و الأرض اشتركوا في دم مؤمنٍ لأكبّهم الله في النار) رواه الترمذي كتاب الديات ، باب الحكم في الدماء (١٧/٤) . وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٧) . وقال صلى الله عليه وسلم : (سِبابُ المسلم فُسوق وقتاله كفر) ، رواه البخاري كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٢١/١) . ومسلم كتاب الإيمان ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : سباب المسلم فسوق (٨١/١) .

٢ – وجوب أداء الأمانة : (فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فليؤُدِّها إلى مَنْ ائْتمَنَهُ عَلَيها):

إنَّ الأمانة مسؤوليَّة عظيمة ، و حمل ثقيل : فعلى الإنسان أن يتحمَّل مسؤوليَّته ، و أن يؤدي أمانته فيما بينه و بين الله ، و فيما بينه و بين العباد .

إنَّ الإنسان يحمل مسؤوليَّة عظيمة ، فهو الَّذي حمل الأمانة الَّتي أبت السماوات و الأرض و الجبال حملها ، والأمانة كلمة واسعة المفهوم ، يدخل فيها أنواع كثيرة منها :

الأمانة العظمى ، وهي الدين والتمسك به ، قال تعالى : (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) الأحزاب : ٧٢ – ٧٣. يقول القرطبي : الأمانة في الآية تعم جميع وظائف الدين وتبليغ هذا الدين أمانة أيضاً ، فالرسل أمناء الله على وحيه كما قال صلى الله عليه وسلم : " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء).

وكل ما أعطاك الله من نعمة فهي أمانة لديك يجب حفظها واستعمالها وفق ما أراد منك المؤتمن ، وهو الله جل وعلا ، فالبصر أمانة ، والسمع أمانة، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، واللسان أمانة ، والمال أمانة أيضاً ، فلا ينفق إلا فيما يرضي الله .

والعرض أمانة ، فيجب عليك أن تحفظ عرضك ولا تضيعه ، فتحفظ نفسك من الفاحشة ، وكذلك كل من تحت يدك ، وتحفظهم عن الوقوع فيها ، قال أبي كعب رضي الله عنه : من الأمانة أن المرأة أؤتمنت على حفظ فرجها) .

والولد أمانة ، فحفظه أمانة ، ورعايته أمانة ، وتربيته أمانة .

والعمل الذي توكل به أمانة ، وتضييعه خيانة ، فعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة " ، قال : كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : " إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة (٦٤٩٦) . وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر لما سأله أن يوليه قال : (... وإنها أمانة ...) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة ، ح (١٨٢٥) .

والسر أمانة ، وإفشاؤه خيانة ، ولو حصل بينك وبين صاحبك خصام فهذا لا يدفعك لإفشاء سره ، فإنه من لؤم الطباع ، ودناءة النفوس ، قال صلى الله عليه وسلم : (إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة) أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في فضل الحديث ح (٤٨٦٨) ، والترمذي ، كتاب البر ، باب ما جاء أن المجالس بالأمانة ، ح (١٩٥٩) ، وقال : حديث حسن .

والأمانة ، بمعنى الوديعة ، وهذه يجب المحافظة عليها ، ثم أداؤها كما كانت .

أداء الأمانة : إنَّ الأمانة مسؤوليَّة عظيمة ، و حمل ثقيل ، فعلى الإنسان أن يتحمَّل مسؤوليَّته ، و أن يؤدي أمانته ولقد أمر الله تعالى بأداء الأمانة فقال : (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ) .النساء : ٥٨ .

قال عليه الصلاة والسلام في الأمر بردها : " أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك ". رواه أبو داود في البيوع ، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده ح (٣٥٣٤) ، (٣٥٣٥) ، والترمذي في البيوع ، باب (٣٨) ح (١٢٦٤) ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، وغيرهم ، أنظر : السلسلة الصحيحة ، رقم (٤٢٤) .

٣- التحذير من مظاهر العصبية الجاهلية: (ألا و إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة):

حيث وضع رسول الله أخلاق ومبادئ وقيم الجاهلية، وتصوراتها ومظاهرها وشعاراتها وكبريائها وعنجهيتها، وعقائدها وأحكامها وأعرافها، كل ذلك وضع النبي (صلى الله عليه وسلم) تحت قدمه..ومن الجاهلية المعاصرة القومية والعلمانية والديمقراطية.

ذكرت كلمة الجاهلية في كتاب الله عز وجل في أربعة مواضع:

١- في قول الله عز وجل(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) آل عمران ١٥٤.وفي ذلك إشارة إلى ما كان عليه أهل الجاهلية من سوء الظن بالله عز وجلوالتكذيب بقدره.

٢- و في قول الله عز وجل : (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) المائدة ٥٠.وفي ذلك إشارة إلى ما كان عليه أهل الجاهلية من التحاكم في الدماء والأموال والأعراض إلى غير ما أنزل الله .

٣- و في قول الله عز وجل : (وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) الأحزاب ٣٣. وفي ذلك إشارة إلى ما كان عليه نساء الجاهلية من التبرج و الخروج الأُولى على مقتضى الفضيلة من الوقار والحشمة والقرار في البيوت.

٤- و في قول الله عز وجل : (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)الفتح ٢٦.وفي ذلك إشارة إلى ما كانوا عليه من التعصب لغير الحق ، والأنفة من الانقياد للحق ، والاعتزاز الباطل بالأحساب والأنساب.

فجاءت كلمات النبي في هذا اللقاء الجامع لتبطل كل ما كانت الجاهلية تفخر وتتمسك به من تقاليد العصبية القبلية و فوارق اللغة و الأنساب و العرق و استعباد الإنسان لأخيه الإنسان بأغلال الظلم و المراباة ولتلغي جميع قيم الجاهلية الفاسدة وعقائدها الباطلة وسلوكها المعوج ، و لتجعل كل هذه المواريث محقرة في ضمير المسلم وتحت موطئ .

روىجبير بن مطعم رضي الله عنه قال: "ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية وليس منا من مات على عصبية ". أخرجه الإمام أبو داود بإسناد حسن .أنظر: سنن أبي داود كتاب الأدب ، باب العصبية رقم ٥١٢١ .

٤- التحذير من الربا : (وإنَّ ربَا الجَاهِليّة مَوضوعٌ ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وإنّ أَوّلَ رباً أَبْدأُ بِهِ ربَا عَمّي العباسُ بن عبد المطلب):

حرم الإسلام الربا وحذر منه لأنه النظام الذي يسحق الفقراء، ويجعل المجتمع طبقيا يمتلئ بالأحقاد والضغائن ويكثر فيه الجرائم.. ويعرض المجتمع للحرب مع الله، وأي نصر في معركة تكون مع الله، فلا يكون إلا الشقاء والتعاسة، وقلة الخير والبركة، فلا خير من الأرض إلا القليل ولا من السماء إلا النذر اليسير.

قَالَ ابن جرير الطَّبَري « إن الرَّجُل في الجَاهِليَّة يكون له على الرَّجُل مال إلى أجل، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه فيقول: الذي عليه الدين أخِّر عني دينك وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك، فذلك هو الرِّبَا أضعافاً مضاعفة فنهاهم الله عزّ وجلّ في إسلامهم عنه.الطَّبَري، جامع البيان (٤/٩٠) .

قال عليه الصلاة والسلام: « لا تبيعوا الدينار بالدينارين ولا الدرهم بالدرهمين ولا الصاع بالصاعين، فإني أخاف عليكم الرما والرما هو الرِّبَا » مُسْنَد أحمد (٢/١٠٩) واللفظ له عن ابن عمر ، وعند مسلم بدون فإني أخاف عليكم الرما (٣/١٢٠٩) ومثله مُسْنَد أبي عوانه (٣/٣٩٠) وسُنَن البَيْهَقِيّ الكبرى (٥/٢٧٨) .

فحرم الزيادة التي ينالها الرَّجُل من صاحبه عند تبادل شيء مماثل يداً بيد بمعنى أن يبيع الشيء بنظيره مع زيادة أحد العوضين على الآخر نحو أن يبيع كيلاً من القمح بكيلين من قمح آخر وهكذا في جميع المكيلات والموزونات.

ولقد حذرنا الله من الربا فقال:(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ) البقرة : ٢٧٥-٢٧٧ .

فأكل الربا يعرض صاحبه لحرب الله ورسوله ، فيصير عدوا لله وسوله فهي الحرب بكل صورها النفسية والجسدية ، وما الناس فيه الآن من قلق واكتئاب وغم وحزن إلا من نتاج هذه الحرب المعلنة لكل من خالف أمر الله وأكل بالربا أو ساعد عليها ، فليعد سلاحه إن استطاع ، وليعلم أن عقاب الله آت لا محالة إن آجلا أو عاجلا ، وما عهدك بمن جعله الله عدوا له وأعلن الحرب عليه.

٥- التحذير من الشيطان: (أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم):

التحذير من الشيطان، فإنه يئس من المؤمن لكنه رضي باليسير من المحقرات التي نظن أنها بسيطة، وهي في الحقيقة مدخل للشيطان إلى القلب فيفسده ويهلك الإنسان بعد ذلك.

والشيطان مصدر الشر والغواية يضل الناس بالشهوات والشبهات والملهيات والأمنيات والأغنيات .ويضل الحكام بالتعطش للدماء ، وإهانة العلماء ، ورد نصح الحكماء ، وتصديق السفهاء . ويضل النساء بالتبرج والسفور ، وترك المأمور ، وارتكاب المحظور . ويضل العلماء بحب الظهور ، والعجب والغرور ، وحسد يملأ الصدور ويضل العامّة بالغيبة والنميمة ، والأحاديث السقيمة ، وما ليس له قيمة . ويضل التجّار بالربا في المعاملات ، ومنع الصدقات ، والإسراف في النفقات ويضل الشباب: بالغزل والهيام ، والعشق والغرام ، والاستخفاف بالأحكام ، وفعل الحرام . أحب الناس اليه المغنّون ، والشعراء الغاوون ، وأهل المعاصي والمجون ، وكل خبيث مفتون . أبغض الناس اليه أهل المساجد ، وكل راكع وساجد ، وزاهد عابد ، وكل مجاهد .عدوه: أعوذ بالله منك ، إذا قيلت اختفى وغاب ، كأنما ساخ في التراب ، وهذا جزاء الكذاب .فالشيطان يحاول إيقاع الإنسان في الشرك والبدع والمعاصي ، روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: "يا عائشة، إياك ومُحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالبًا". صحيح ابن ماجه ٣٤٢١.

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: "إن العبد إذا أخطأ، نكتت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون " صحيح الترمذي ٢٦٥٤ .

قال ابن حجر العسقلاني: رُوي عن أسد بن موسى، في الزهد، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: "إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات، فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال مشفقًا حتى يلقى الله آمنًا".وقال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كبارًا مع الإصرار. فتح الباري ج١١ ص٣٣٧ . وروى أحمد عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه.الصحيحة ١-٣٨٩.

حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا ؟ قال : أجاهده. قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده. قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده. قال : هذا يطول أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع ؟ قال : أكابده وأرده جهدي. قال : هذا يطول عليك ، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك. – إن صدقت هذه الرواية – لم يكن تاركاً الدنيا كسباً، بل قلباً .

٦- النسيء زيادة في الكفر : (أَيُّها النَّاس، إِنَّمَا النَّسيءُ زِيادةٌ في الكُفرِ ، يضلُّ به الذينَ كَفَروا ، يُحِلُّونَهُ عاماً ، وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً ، لِيواطِئُوا عِدَّة مَا حَرَّمَ اللهُ فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مضر ، الذي بين جمادى وشعبان):

فـ"النسيءُ هو ما كان أهلُ الجاهلية يستعملونه في الأشهُرِ الحرُم وكان مِن جُملةِ بِدَعِهم الباطلة: أنهم لما رأوا احتِياجَهم للقتالِ في بعضِ أوقاتِ الأشهُرِ الحرُم رأوا ــ بآرائهم الفاسدة ــ أنْ يحافظوا على عِدَّةِ الأشهُرِ الحرُم ، التي حرَّم الله القتالَ فيها وأنْ يؤخِّروا بعضَ الأشهُرِ الحرُم أو يقدِّموه ويجعلوا مكانَه من أشهُرِ الْحِلِّ ما أرادوا فإذا جعلوه مكانه أحلُّوا القتالَ فيه وجعلوا الشهرَ الحلالَ حراماً فهذا ــ كما أخبر الله عنهم ــ أنه زيادةٌ في كُفرِهم وضلالِهم؛ لِما فيه من المحاذير: منها: أنهم ابتدَعُوه من تِلقاءِ أنفُسِهم وجعلوه بمنزلةِ شرعِ الله ودينِه والله ورسولُه بريئان منه، ومنها: أنهم قلبوا الدِّينَ؛ فجعلوا الحلالَ حراماً والحرامَ حلالا، ومنها: أنهم موَّهُوا على الله بزَعمِهم وعلى عبادِه ولبَّسُوا عليهم دينَهم واستعملُوا الخداعَ والحيلةَ في دينِ الله، ومنها: أنَّ العوائدَ المخالفةَ للشِّرع مع الاستمرارِ عليها يزولُ قبحُها عن النفوس؛ وربما ظُنَّ أنها عوائدُ حسنةٌ؛ فحصلَ من الغلطِ والضلالِ ما حصل؛ ولهذا قال: (يُضَلُّ بِه الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً ليواطئوا عِدةَ ما حرَّم الله): أي ليوافقوها في العدَد؛ فيُحِلُّوا ما حرَّم الله".

تفسير السعدي ١/٣٣٦-٣٣٧.

٧- الوصية بالنساء خيرا: (أَيُّها النَّاس، ، اتقوا الله في النساء ، فإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً. إلا إن لكم على نسَائِكُمْ حقاً و لِنسَائِكُمْ عليكم حقاً فأما حقكم على نسائكم؛ فلا يُوطِئنَ فُرُشَكُمْ غيرَكم، وَلا يُدْخِلْنَ أحَداً تكرَهُونَهُ بيوتَكُمْ، ولا يأتينَ بِفَاحِشَة،فإنْ أطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزقُهنَّ وكسوتُهُنَّ بالمَعْرُوفِ):

أوصى رسول الله صلى الله عليه و سلم خيراً بالنساء و أكد في كلمة مختصرة و جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية و تثبيت ضمانات حقوقها و كرامتها الإنسانية التي تضمنها أحكام الشريعة الإسلامية فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كان له أختان فأحسن صحبتهما ادخله الله الجنة) وقال : (من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن ادخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن). وأنهن عوان (أي أسيرات) لا يملكون لأنفسهن شيئا، فإن الإسلام أعطى للمرأة حقوقها

ووصى بها.. وجعلها بنتا في بيت أبيها، وزوجة في بيت زوجها وهي سيدة ذلك البيت.. أعطاها حقها في الميراث، وكانت من قبل لا تأخذ شيئا.. جعل لها كرامة وكانت من قبل تباع وتشترى.. وجعل لها رأيا ولم يكن لها من قبل رأي.. فهذا هو الإسلام جعلها مصانة في بيتها معززة في حياتها.

اختلفت نظرة الناس إلى المرأة على مرّ العصور ، و يمكن إيجاز هذه النظرة لنعرف الفرق بين نظرة الإسلام للمرأة و نظرة غيره إليها ، لنعرف الحقيقة و نكون من أهل الإنصاف .

فللمرأة في الإسلام منزلتها ومكانتها و وجودها ، و للمرأة حقوقها ، و عليها واجباتها .. و يكفي من ذلك ما أمر به الإسلام من الإحسان إليها . وهي أم و أخت و زوجة و بنت و قد جاء الأمر بالإحسان إلى الأم والزوجة و البنت و الأخت.

وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : (خيركم خيركم لأهله ، و أنا خيركم لأهلي) الترمذي.

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : (من كانت له أختان فأحسن صحبتهما ما صحبتاه دخل بهما الجنة) رواه أحمد .

٨ – إقرار العدالة والمساواة الإنسانية : (أيها النّاسُ إن ربَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ ، كُلُّكُمْ لآدمَ وآدمُ من تُراب، أَكرمُكُمْ عندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ وليس لعربيّ فَضْلٌ على عجميّ إلاّ بالتّقْوىَ، أَلاَ هَلْ بلَّغْتُ، اللّهُمّ اشهد).

حيث المساواة بين الحاكم والمحكوم، وبين الغني والفقير، والقوي والضعيف، والصغير والكبير، والأبيض والأسود والأحمر، والرجل والمرأة، في الحقوق الإنسانية.

فالإسلام يقوم في الحقوق والواجبات على مبدأ العدل لا على مبدأ المساواة، وفي بيان الواقع على ما هو الحق في واقع الحال لا على التسوية مطلقاً وإن كان الواقع متفاضلاً، فلا يمكن أن يستوي الحق والباطل والخبيث والطيّب والعالم والجاهل.

ولذلك جاء الإسلام بأحكام متنوعة خصّ الرجال ببعضها وخصّ النساء ببعضها، وميّز بين الرجال والنساء في قسم منها وأمر أن يرضى كل منهما بما خصّه الله به من أحكام ونهاهم عن التحاسد وعن تمني ما فضّل الله به بعضهم على بعض، قَالَ تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ النساء / ٣٢. وهذا التخصيص في الأحكام ليس معناه عدم مساواة، وإنما علاج لأفعال الأنثى باعتبارها أنثى وعلاج لأفعال الذكر باعتباره ذكراً وكلها قد عولجت بخطاب يتعلق بأفعال العباد.

فموضوع الحقوق والواجبات، أي التكاليف الشَّرْعية، قد شرعها الله للإنسان من حيث هو إنسان، ولكل نوع من نوعي الإنسان: الذكر والأنثى، ولكن باعتباره نوعاً من أنواع الإنسان له صفة الإنسانية وصفة النوعية عند التشريع، ولا يراد تمييز أحدهما عن الآخر كما لا يلاحظ فيها أي شيء من أمور المساواة أو

عدم المساواة بين الرَّجُل والمرأة موضع بحث وليست هذه الكلمة موجودة في التشريع الإسلامي بل الموجود هو حكم شرعي لحادثة وقعت من إنسان معين سواء أكان رجلاً أم امرأة.

عَنْ عُرْوَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ ؛أن قُرَيْشا أهمهم شَانُ المرأة الْمَخْزُومِيَّةِ التي سرَقَتْ . فَقَالُوا : مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلا أُسامة ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم . فَكَلَّمَهُ أُسامة . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أتشفع في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ . فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ إنما هَلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أنهم كَانُوا إذا سرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ ، تَرَكُوهُ وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ ، أقاموا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللهِ ، لَوْ أن فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا أخرجه أحمد ٤١/٦ و"البُخَارِي" ٢١٣/٤ و٥/. و"مسلم" ١١٤/٥

اللهمَّ تقبَّل من الحجّاج حجَّهم وسعيَهم، اللهمّ اجعل حجَّهم مبرورًا، وسعيَهم مشكورًا، وذنبَهم مغفورًا، اللهمّ تقبّل مساعيَهم وزكِّها، وارفع درجاتهم وأعلِها، اللهم بلّغهم من الآمال منتهاها، ومِنَ الخيرات أقصاها، اللهمّ اجعل سفرهم سعيدًا، وعودَهم إلى بلادهم حميدًا، اللهمّ هوِّن عليهم الأسفار، اللهم آمنهم من جميع الأخطار، اللهمّ احفَظهم من كلّ ما يؤذيهم، وأبعِد عنهم كلَّ ما يضنيهم، اللهمّ واجعل دَربهم دربَ السلامة والأمان والراحةِ والاطمئنان، اللهمّ لا تحرمنا من زيارة بيتك الكريم، اللهم وتقبّل منهم إنّك أنت السميع العليم، واغفر لهم إنك أنت الغفور الرحيم.

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
	مقدمة	٢
١	الدرس الأول : الحج فضائل وثمار	٥
٢	الدرس الثاني : ثلاث رسائل ما قبل الحج	١٥
٣	الدرس الثالث : رحلة التشويق إلى البيت العتيق	٢٧
٤	الدرس الرابع : ثلاث رسائل ما بعد الحج	٣٠
٥	الدرس الخامس : خطبة الوداع دروس وعبر	٣٨
	الفهرست	٤٧

*** تم بحمد الله تعالى ***